

אסתר מאמ



Bibliotheca Alexandrina



0015740

إله غير صامت

بقلم
فرانسيس شيفر

تعرّيب
حمزة زريق



صدر من دار الثقافة ص ٠ ب ١٣٠٤ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو
إعادة نشر أو طبع بالرنيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر .
والناشر وحده حق إعادة الطبع) ٢١٣/١٠ ط ٧٨/١ (١) ٣ - ٣
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٣٣٦١
طبع بالقاهرة الحديثة للطباعة ت ٩٣٤٣١٠

إهداء

الى زوجتى

التي تشجعنى على البحث والخدمة

(المعرب)

في هذا الكتاب

الموضوع	صفحة
تمهيد	٥
١ - الحاجة إلى البحث فيما وراء الطبيعة	٨
٢ - الحاجة إلى البحث في الأخلاق	٢٦
٣ - الحاجة إلى نظرية المعرفة	٣٩
٤ - الضرورة المعرفية أن الحاصل	٦٠

تمهيد

هذا أول كتاب يترجم الى العربية من كتب دكتور شيفر فيلسوف المسيحية المعاصر . لذلك يلزم أن نقدم له بمقدمة نعرفنا بشخصه وبأسلوبه وبموضوع بحثه حتى يستطيع القارئ العربي أن يتفهم الموضوع ويتعمق فيه .

من هو المؤلف :

دكتور فرنسيس شيفر قسيس أمريكي اشتغل راعيا لمدة عشر سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية حتى سنة ١٩٤٨ عندما دعاه الله مع أسرته للسفر الى أوروبا والخدمة هناك حيث اتجه الى سويسرا وسكن في إحدى قرى الألب وأنشأ هناك عملا أطلق عليه لفظة لا برى L'Abir وهي كلمة فرنسية تعني « الملجأ » . وقد استخدم الشالبيه الجاور لمسكنه لاستقبال الزائرين من كل صوب في العالم ومن كل قطاع في المجتمع لا سيما الشباب . وقد أطلقت مجلة تايم على هذا العمل وصف « ارسالية الى المفكرين » . وقد عرف المكان كميناء روحي لكل ضال ولكل من يطلب اجابات على أسئلتهم الفلسفية الحائرة . ولجأ اليه كل من يبحث عن معنى الحياة أو هدفها . وقد تزايد عدد الزائرين من الشباب من طلاب الجامعات وأساتذتها والأطباء والكتاب والرعاة والمهندسين والموسيقيين والرسامين ومجموعات مختلفة أخرى وكان الحل الذي قدمه دكتور شيفر لمشكلتهم يتلخص في حقيقة واحدة أساسية « وجود الله الذات غير المحدود الذي يمكن للإنسان أن يتعرف عليه » .

كتبه :

كتب دكتور شيفر عدة كتب ، لكن ثلاثة منها تلخص افكاره الأساسية :

- 1 — The God who is there
- 2 — Escape from reason
- 3 — He is there and He is not silent

والأخير هو الكتاب الذي بين أيدينا وقد ترجمنا عنوانه « إله غير صامت » .

وهذه الكتب تناقش قضايا الفلسفة المعاصرة (وهذا سر صعوبة

هذه الكتب بالنسبة للقارئ العربي (فهذه الفلسفات غير معروفة الا لقلّة من المثقفين وان كانت قد وصلت الى شبابنا بصورة ، مشوهة كما في حركة الهيبيز .

ونحن اذ نقدم هذا الكتاب (آمليين ان نتبعه بكتب اخرى) انمسا نقصد ان نحصن شبابنا ضد هذه الأفكار - فهي آتية لا ريب . وعلى الكنيسة ان تهتم بالسبق ولا تنتظر حتى يدق جرس الخطر ثم تنشغل بالدفاع فقط في مختلف الميادين . ولستنا نريد ان نشرح في هذه المقدمة الفلسفات التي تعرض لها الكاتب لكننا نقدم بعضا من الأفكار التي يرد عليها في كتبه :

؛
لقد مات الانسان - الله مات - الحياة بلا معنى - صار الانسان مجرد آلة - الخيال والمخدرات والجنس هي الوسيلة للهروب من الحياة ... الخ .

ودكتور شيفر مقتنع تماما بأن المسيحية ليست مجرد ايمان اعمى لكن الله الحكيم عنده الرد على كل تساؤلاتنا . لذلك فهو يقدم لنا البراهين المنطقية التي ترد على الملحدّين والوجوديين بقوة واقتناع .

اسلوب المؤلف :

ولدكتور شيفر اسلوبه الخاص : فهو يسترسل في افكاره - رغم انها موزعة على اكثر من كتاب - لذلك تراه يشير الى افكار ذكرت في كتب سابقة ففي كتابنا هذا يشير دائما الى فكرة الطبيعة والنعمة ، وهي فكرة شرحها بالتفصيل في كتابه « الهروب من الفكر » لذلك حاولت ان اشرح كل فكرة من هذا النوع في الهامش بعد الاطلاع على الكتاب الاصلى ليسهل على القارئ تتبع الموضوع .

وستجد في الكتاب ان اسلوب المؤلف اقرب الى اسلوب المدرس منه الى اسلوب الكاتب . فهو يشرح الفكرة في اكثر من فصل وبأكثر من طريقة حتى لتظن انه تكرر دون داع ، لكنه يقصد بذلك الشرح والتأكيد والتركيز على الأفكار الهامة ، ولا يجب ان ننسى ان الكتاب فلسفى في موضوعه لذلك سيرتاح اليه ، ويعجب به ، من سبق ان درس

خشيئنا عن الفلسفة • أما للقارئ العادي ، فقد حاولت قدر استطاعتي أن
أوضح المفاهيم في الهامش • وأرجو أن أكون قد نجحت في ذلك • لكن
أسلوب الكتاب وحرصى على نقله بأمانة جعل أسلوبه الفلسفى صعبا
نوعا ، وعلى القارئ أن يقرأه باعتباره كتابا دراسيا لا رواية تقرا
في سهولة •

ولعل أصعب ما صادفتني في هذا الكتاب أن المؤلف يستخدم كلمات
صاغها لنفسه حتى أنها لا توجد في المعاجم • كما أنه يشير الى بعض
الروايات المعاصرة في السينما وكأنه يخاطب الشاب الأوربي الذي يرى
هذه الروايات •

ويتحدث مستخدما بعض المصطلحات ليرد على فيلسوف أو آخر
وكأننا نعرف كل كلمة كتبها هذا الفيلسوف •

لكنى لا أريدك أن تياس أيها القارئ بل تقدم واقرا قراءة جادة
ولا بد أنك ستصل الى هدفك •

وأرجو من الله أن يستخدم هذا الكتاب ليكون بركة لشبابنا
ليكونوا مستعدين لمجاوبة من يسألهم عن سبب الرجاء المبارك الذي
فيهم •

المعرب

الفصل الأول

الحاجة الى البحث فيما وراء الطبيعة

يبحث هذا الكتاب في موضوع وجود الله غير الصامت في ميادين ثلاثة : - الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) * والأخلاق (morals) والمعرفة (Epistemology)

وهذه الميادين الثلاثة هي الميادين التقليدية للأبحاث الفلسفية . فالميتافيزيقا تبحث في الوجود أو مشكلة الوجود . وهذا يتضمن وجود الانسان . لكن وجود الانسان ليس هو المشكلة العظمى لكن المشكلة الأعظم هي وجود أى شيء على الاطلاق . ولعل أفضل من عبر عن ذلك هو جان بول سارتر عندما قال « ان المشكلة الفلسفية الأساسية هي وجود شيء وليس عدم وجود شيء » . ولا يوجد بحث يستحق أن تطلق عليه كلمة فلسفة يهمل الاجابة على حقيقة وجود الأشياء . وان هذه الأشياء موجودة بصورة مركبة كما نراها الآن .

هذا الموضوع (الوجود) هو موضوع الميتافيزيقا الذى نبحث فيه .

اما الموضوع الثانى فى الفكر الفلسفى فهو الانسان وثنائية الانسان .

فالانسان شخص لكنه محسودون . ويحسن أن نذكر قولا آخر لسارتر « لا يوجد أى معنى لنقطة محددة ما لم توجد لها نقطة مرجعية

* ظهر اسم ما وراء الطبيعة بطريقة عرضية بحتة ، فان ناشرى كتب أرسطون كانوا قد وضعوا بحوثه ودراساته الفلسفية العامة بعد دراساته فى العلوم الطبيعية . ولما كانت هذه الأخيرة تعرف باسم الفيزيقا أطلقوا على الأخرى اسم ما بعد الطبيعة (ميتافيزيقا) أى الذى يلى الطبيعة فى الترتيب وهو ذلك الفرع من الفلسفة الذى يحاول الوصول الى نظرية عامة فى طبيعة العالم .

(العرب)

(reference) تقارن بها ، ولا شك أن كل مسيحي يوافق سارتر على قوله هذا .

الانسان محدود ، فهو ليس كلاً متكاملًا بالنسبة لنفسه . لكن الانسان يختلف عن كل ما هو غير انساني . فالانسان شخص بالمقارنة بالوجودات الأخرى التي لا نسميها أشخاصاً . وأنا أستخدم لفظاً معيناً للدلالة على هذه الحقيقة ، فأقول ان الانسان يمتاز بانسانيته Manishness ان المدرسة السلوكية ★ Behaviorism ومذهب الحتمية ★ Determinism قد يدعيان ان الانسان ليس شخصية . ولكن المشكلة الأولى أن هذا الفرض — يناقض ما نراه من انجازات الانسان خلال أربعة آلاف سنة أن قبلنا هذا الرقم بحسب أحدث الدراسات . أما المشكلة الثانية فهي أننا نجد أن أي انسان يعتنق السلوكية أو الحتمية لا يستطيع أن يستمر على اعتقاده هذا بأن الانسان مجرد آلة كما صوره فرنسيس كريك الذي يختزل الانسان الى خواص طبيعية وكميائية فقط . لكن من الطريف أن كريك يظهر بوضوح أنه غير ملتزم بفكرته التي يؤمن بها . ففي أحد كتبه « الجزيئات والانسان » ، يتحدث عن الطبيعة مشيراً إليها بلفظة « هي » وفي كتاب أخسر يتحدث عن الطبيعة بادناً بحرف كبير Nature وكذلك الحال مع سكينز مؤلف كتاب « خلف الحرية والكرامة » إذ يظهر نفس الاتجاه .

هاتان هما الصعوبتان اللتان تعترضان أي معتنق لمذهب السلوكية أو مذهب الحتمية . (وهما المذهبان اللذان يناديان بأنه لا يوجد فرق جوهري بين الانسان وغيره من الوجودات) فالذي يعتنق هذه الأفكار لا بد أن ينكر ما يلاحظه الانسان على نفسه منذ أن كان انساناً بدائياً يعيش في الكهوف وحتى يومنا هذا . كما أنه لا يمكن للتركيبات

★ المدرسة السلوكية : تدرس سلوك الانسان باعتباره مجرد ردود أفعال لمؤثرات خارجية . وبهذا يصبح الانسان مجموعة معقدة من ردود الأفعال كآلة العقدة .

★ الحتمية مذهب ينادى بأن أفعال الانسان لا سلطة للانسان عليها . وهو مذهب شبيه بمذهب الجبرية أو القضاء والقدر . (العرب)

الكيميائية أو لاي نوع من الحتمية أن تجعل الانسان يعيش كغيره من المخلوقات .

أما الموضوع الثانى (أى ثنائية ★ الانسان) فأننا نلاحظ سمو الانسان . وقد لا تحب كلمة سمو ، لكنك اذا اخترت لفظا آخر فان هذا لا ينفى أنه يوجد فى الانسان شيء عظيم سام ولا بد أن أنكر بهذه المناسبة الخطأ الفاحش الذى وقع فيه المبشرون : إذ خلطوا بين خطية الانسان ، ووقوعه تحت دينونة الله ، مع فكرة أن الانسان لا شيء ، وهو مجرد صفر . لكن الكتاب المقدس لم يقل ذلك . فالانسان يتمتع بشيء عظيم . ولا شك أننا نضيع أعظم فرصة لنا للكرامة ان اهملنا التعبير على أن الكتاب المقدس يريدنا سر عظمة الانسان وسموه .

ومن هنا تجيء الثنائية الثانية (كانت الثنائية الأولى أن الانسان شخص لكنه محدود) فالانسان ليس ساميا فحسب لكنه قاس أيضا . ويمكن أن نترجم هذا التناقض بلغة العصر فنقول انه اغتراب الانسان عن نفسه وعن كل انسان آخر فى ميدان الأخلاق . اذا فنحن أمام ميدانين من ميادين الفكر الفلسفى : الأول ميتافيزيقى ، عن الوجود . والآخر أخلاقى . أما الميدان الثالث فى هذه الدراسة فهو ميدان المعرفة أو مشكلة المعرفة .

ونلاحظ ملاحظتين هامتين :

أولا : أن الفلسفة والدين يناقشان نفس المشاكل الأساسية . لقد اتجه المسيحيون - لا سيما المبشرين منهم - الى نسيان هذه الحقيقة . فالفلسفة والدين يبحثان نفس الموضوعات ، لكن لكل منهما اجاباته المختلفة واساليبه المختلفة . فالفلسفة والدين (وأقصد به المعنى الواسع أن العام للدين بما فى ذلك المسيحية) يبحثان فى الوجود : أى ما هو موجود . والانسان وما فيه من ثنائية (أى الأخلاق) وفى الطريقة التى يصل بها الانسان الى المعرفة . هذه الاقكار تعالجها الفلسفة والدين . سواء أكان ما نركز به أو ما نؤمن به من آراء مسيحية

★ اننا نستخدم كلمة ثنائية لترجمة كلمة Dilema وهى تعنى حلين كلاهما سر وعلى الواحد أن يختار بينهما .

• محافظة •

ثانيا : للفلسفة معنيان يجب ألا يختلطا حتى لا تختلط الأمور
• امامنا • المعنى الأول لكلمة فلسفة انها فكر اكاديمى أو مادة دراسية
على مستوى فكرى عال-لا يهتم بها الا قلة قليلة من الناس • وبهذا
المعنى فهناك قلة نطلق عليهم لفظ فلاسفة •

اما المعنى الثانى - الذى لا يجب اهماله ان كنا نريد أن نعرف
مشكلة الكرازة بالانجيل فى القرن العشرين - فهو ان الفلسفة هى نظرة
الانسان للحياة • وبهذا المعنى يصبح كل الناس فلاسفة • لأن لكل
انسان نظرتة الخاصة للحياة • كل انسان فيلسوف ، سواء اكان عاملا
يدويا بسيطا أو أستاذا للفلسفة فى الجامعة •

مال المسيحيون الى احتقار مفهوم الفلسفة وكان هذا سببا فى
ضعف الكرازة • فالمسيحيون المحافظون يقولون « اننا على حق ان نحترق
الفلسفة بل ونحترق كل ما هو عقلى » وكليات اللاهوت المسيحية نادرا
ما تربط بين اللاهوت والفلسفة (خصوصا الفلسفة المعاصرة) لذلك
يتخرج الخريجون وهم لا يعرفون الصلة بين الفلسفة واللاهوت • بل ان
المأساة التى لاحظتها أن الخريجين - ليس فقط لا يعرفون الاجابات على
الأسئلة بل - لا يعرفون الأسئلة نفسها •

ان الفلسفة عامة شاملة فى نظرتها • ولا يمكن أن يعيش الانسان
بدون نظرة معينة للحياة • لذلك فكل انسان فيلسوف •

وان كانت امكانيات الاجابة فى ميادين الفلسفة الثلاثة التى
ذكرناها محدودة ، لكن توجد مناقشات واسعة حول الاجابات
الأساسية • ومما يساعدنا سواء كنا ندرس الفلسفة فى الجامعة
ونصارع فى مشاكلها صراعا رهيبا ، أو كنا نجهز انفسنا لتكون كارزين
بالكلمة الى أناس لهم نظرتهم الخاصة للحياة - أن نتحقق أنه بالرغم
من وجود تفصيلات واسعة ، فان الاجابات محدودة العدد جدا •

وهذه نماذج قليلة من الاجابات على هذه الأسئلة :

(١) النموذج الأول هو الذى يقول انه لا توجد اجابة منطقية
معقولة • وهذه ظاهرة منتشرة فى جيلنا ، حتى ان هذه الأسئلة نضعها

تحت عنوان « الأسئلة الميئوس من الاجابة عليها » • وأنا لا ادعى أن هذا النموذج الفكرى لم يكن موجودا فى الأجيال السابقة لكنى أقول أنه أكثر انتشارا فى جيلنا الحالى • وهذا لا ينطبق فقط على الفلاسفة ، بل انه شعار معظم الناس فى الشوراع والمقاهى كما فى الجامعات أيضا • وعلى ذلك فالاجابة هى أنه لا توجد اجابة منطقية • فكل شيء غامض وغير منطقى وهذا الفكر نراه بوضوح ودقة فى عالم الفكر الوجودى وفى مسرح اللامعقول • وهذه هى فلسفة أو نظرة عدد كبير من الناس هذه الأيام فهى جزء لا يتجزأ من فكر الانسان فى عصرنا الحاضر • لا توجد اجابة ، فكل شيء غير منطقى ولا معقول •

ومن الصعب أن تناقش انسانا يعتقد هذا الرأى فيرى أن كل شيء لا معنى له ، وأنه لا توجد اجابات ، وانه لا ارتباط بين السبب والنتيجة • لكن من حسن الحظ أنك لا تجد انسانا يعتقد هذا المبدأ على طول الخط وبإصرار • فمن الممكن أن يعتقد هذه الأفكار فكريا فقط أما من الناحية التطبيقية فلا يمكن أن تكون كل الأشياء فى حالة من الفوضى • والسبب الأول لعدم امكان اعتناق هذا المبدأ عمليا هو أن العالم المحيط بنا منظم تنظيما متقنا ، لا فوضى • فلو كان كل شيء فوضى ولا معقول كما يدعون لانتهدت الحياة كلها • فلا يمكن أن نحيا فى هذا العالم المحيط بنا الا اذا كان له شكل خاص ونظام خاص • ولا بد للانسان أن يخضع لهذا النظام حتى يستطيع أن يعيش فى هذا العالم •

فى رواية لجودارد Godard نرى الناس يخرجون من الشباك بدلا من أن يخرجوا كالمعتاد من الباب • لكنهم لا يخرجون من الجدار • وكأن جودارد يقول : بالرغم من أنه لا يملك الاجابة ، لكن هذا لا يعنى أنه يستطيع المروق من هذا الجدار الصلب • وهو يعبر بهذا عن المشكلة • فهناك تناقض بين فكرة أن العالم يعيش فى فوضى تامة • وبين الحقيقة أن العالم الخارجى له شكل ونظام •

ويحاول الناس أن يدخلوا شيئا ولو بسيطا من النظام ، لكن ما أن يدخل النظام حتى تنهار افكار هذا النوع من الناس الذين ينادون باللانظام •

وكثيرون من المفكرين هذه الايام ، يؤمنون بأن العالم يعيش فى فوضى تامة • لكن هؤلاء المفكرين لا يلتزمون بفكرتهم • فما أن تناقش

أحدهم مناقضة منطقية وتصل به الى أسئلة لا يستطيع الاجابة عليها حتى يترك المنطق ويقول لك ان كل شيء لا معقول ولا توجد اجابات محددة . لذلك عندما نناقش مثل هذا الانسان علينا أن نبين له - عندما يلجأ الى هذا الفكر - ان كل مناقشاته مشكوك فيها .

اذا من الناحية النظرية نجد هذا الفكر منتشرا .

أما من الناحية العملية فاننا نجده يتعارض مع عالمنا المنظم . وما أن يتبع انسان هذا الفكر حتى نجد أن وسيلة الاتصال بيننا قد انقطعت . وتتحول المناقشة الى مجرد أصوات لا معنى لها . مثل : « ياه . . . ياه . . . ياه . . . » لقد حاول مسرح اللامعقول أن يوضح ذلك لكنه فشل . ولو تتبعنا مسرحية في مسرح اللامعقول لوجدتها تريد أن تقول لك ان الاتصال بينك وبين الناس غير موجود . وتتكرر هذه الجملة أمامك انه لا وسيلة للاتصال أو التفاهم .

نخلص من هذا ان الاجابة التي يوردها هذا النوع من الناس بأن كل شيء فوضى هي هروب من الاجابة .

(٢) النموذج الثاني يقول بأنه توجد اجابة منطقية معقولة يمكن للفرد ان يعيها ثم ينقلها للآخرين . وفي هذا الفصل سندرس الاجابات الممكنة في مجال الميتافيزيقا ، ثم نناقش في الفصول التالية مشكلة ثنائية الانسان في مجال الأخلاق لذلك فنحن نضع أمامنا الآن هذه الاجابات الممكنة في مجال الميتافيزيقا . وقد سبق أن ذكرت انه رغم عدم وجود اجابات عديدة الا أنه توجد تفاصيل كثيرة . ونستغرب اذا علمنا أنه لا يوجد سوى ثلاث اجابات منطقية فقط .

ولا ننسى اننا ندرس الوجود أو حقيقة ان هناك شيء موجود . ولنذكر قول سارتر « ان المشكلة الفلسفية الأساسية هي وجود شيء وليس عدم وجود شيء » .

والاجابة الاولى ان كل ما هو موجود نشأ عن لا شيء . وبمعنى آخر فانت تبدأ من اللاشيء وللأخذ بهذه الفكرة يجب أن يكون هناك اللاشيء المطلق أو ما سميت به لا شيء من اللاشيء . فليمكن أن يكون « لا شيء من الأشياء » ولا « شيء من شيء » بل لا بد أن يكون لا شيء من لا شيء . فان قصد أحد أن يقبل هذه الاجابة فيجب الا يكون شيء بل لا شيء من

لا شيء أى أنه لا يوجد شيء سواء أكان كتلة أو حركة أو طاقة ولا ذات
بالمرة .

وسأشرح فكرة لا شيء من لا شيء كما يلى :

لنفترض وجود لوحة سوداء لم تستخدم من قبل ثم رسمنا عليها
دائرة وفى هذه الدائرة كل شيء مما كان - ولم يكن فى الدائرة شيء .
ثم مسحنا هذه الدائرة . هذا تفسير لشيء من لا شيء .

لا تسمح لأى شخص يدعى أنه يبدأ من اللاشيء ثم يبدأ من شيء
مهما كان هذا الشيء : طاقة - كتلة - حركة - أو شخص . فإى واحدة
من هذه شيء . والشيء لا يمكن أن يكون لا شيء . والحقيقة انى لم
أستمع أبدا لمناقشة مستمرة من هذا النوع . لأنك لا يمكن أن تتصور
أن كل ما هو موجود الآن جاء من لا شيء . لكن من الوجهة النظرية
هذه هى الاجابة الأولى .

والاجابة الثانية فى مجال الوجود ان كل ما هو موجود الآن له
أصل غير شخصى مثل : الكتلة - الطاقة - أو الحركة . وهى كلها
ليست أشخاصا بالطبع ، بل أنها متساوية فى انعدام الذاتية . لذلك
فالبداية بآى منها لا يؤدى الى فرق معين من الناحية الفلسفية كم من
أناس عصريين يعتقدون أنهم أكثر تقدما عندما يقولون بأن أصل الوجود
هو الطاقة وليست الكتلة كما قال القدماء . لقد نادى بهذا سلفادور
دالى Salvador Dali عندما ترك السيريالية ★ الى التأمل الباطنى
الغامض . لكن مثل هؤلاء الناس لا يملكون جوابا أفضل كما يدعون :
فالأصل لا شخص أيضا . فالطاقة لا شخصية . حالها حال الكتلة أو
الحركة . وإذا تتقبل البداية اللاشخصية فأنك توجه بنوع من الاختزال .
ومعنى الاختزال ان كل ما هو موجود الآن - من النجوم الى الانسان
- يمكن فهمه بارجاعه الى أصوله الأولى الى العوامل اللاشخصية .

والمشكلة العظمى التى تواجهنا ان نبدأ بالاشخصى هى كيف نجد
أى معنى للجزيئات . فالجزيئية عامل واحد أو شيء واحد أو هى

★ السيريالية مذهب فرنسى يعنى ما هو فوق الواقع أو غير
المألوف ويظهر فى الرسوم غير المترابطة .

(العرب)

الوحدات المنفصلة المكونة للكل • فنقطة الماء جزئية والانسان جزئى
أيضا •

فإذا بدأنا بالاشخصى فكيف نجد لآى جزئية موجودة (بما فى ذلك الانسان أى معنى ؟ لم يستطع أى من فلاسفة الشرق والغرب — وفى كل تاريخ الفلسفة — أن يرد على تساؤلنا هذا •

فإذا بدأنا بالاشخصى فكل شيء — بما فى ذلك الانسان — يجب أن يفهم على أنه لاشخصى مضافا اليه الزمن والصدفة • لا تدع أحدا يشتت فكره فى هذه النقطة • فلا وجود لآى عامل آخر • فإذا بدأنا بما هو لا شخصى فلا يمكن أن نصل الى نوع من الغائية أى الهدف أو الغاية المقصودة •

لم يستطع أحد أن يشرح لنا كيف تضافرت الصدفة مع الزمن مع ما هو لا شخصى لينتج لنا هذا الكون المعقد (ولنترك الآن جانباً الشخصية الانسانية) •

وتحن نسمى البداية بالاشخص بوحدة الوجود Pantheism ★
أن معظم الأفكار اللاهوتية المنحرفة تؤمن بهذه الفكرة أيضا • وتسمية البداية بالاشخصى بكلمة Pantheism فيها خداع لفظى لأن استخدام اللفظ theism يتضمن علاقة بشخص بيتما التعريف الأصيل يتضمن اللاشخصى • وفى مناقشتى لا أسمع لآى شخص أن يستخدم هذه الكلمة دون أن يفكر فى مدلولها ، لكثى أحاول إثبات المناقشة أن أوضح أن المقصود ليس وحدة الوجود بمعناها المضلل بل وحدة كل شيء كما أسميها Panevery thingism • ففى الديانات القديمة كالهندوسية والبوذية كما فى التأمل الباطنى الحديث تجد أن لاهوت وحدة الوجود فيها جميعا لا يعنى حقيقة وحدة الوجود ، بل هو خداع لفظى •

ولكن مهما كانت الصورة التى تتخذها فكرة وحدة الوجود بما فى ذلك صورة العلم الحديث الذى يختزل كل شيء الى الطاقة فائنة نواجه نفس المشكلة دائما : النهاية اللاشخصية •

★ Pantheism المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد •
وان الكون المادى والانسان ليسا الا مظاهر لهذه القوة •

توجد مشكلتان : الحاجة الى الوحدة ، والحاجة الى التعدد diversity فوحدة كل شيء التي تكلمنا عنها تعطي الاجابة على الحاجة الى الوحدة لكنها لا تجيب على الحاجة الى التعدد . قاندا بدأنا بالاشخصى فلا معنى أو دلالة للتعدد . فيمكننا أن نفكر في الهندوسية وفي نظريتها في وحدة الوجود . فهي تقول بأن أصل كل شيء هو الـ OM وفي الواقع كان يجب أن تكون الـ OM هي نهاية كل شيء . وكأنها موسيقى على نغمة واحدة بلا تنوع فلا سبب للتنوع هنا . وهكذا فإن استطاعت وحدة كل شيء أن تعطي اجابة للشكل فانها لا يمكن أن تفسر الحرية . والدورات تظهر كما لو كانت موجات تعلو من البحر لكن كل هذا لا يقدم لنا حلا نهائيا لأي من هذه المشكلات . فالأخلاق في ضوء وحدة كل شيء لا معنى لها كأخلاق لأن كل شيء في هذه الوحدة متساو . واللاهوت الحديث يتجه الى أخلاقيات المواقف Situation Ethics . لأنه لا يوجد شيء اسمه أخلاق في هذه الدورة . ولو ان كلمة أخلاق تستخدم كمجرد كلمة .

هنا مأساة الاجابة الثانية على مشكلة الوجود . وهي أكثر الاجابات انتشارا هذه الأيام . فالعلوم الطبيعية تتمسك بها وتنادي بأن كل شيء بدأ بالطاقة والطلبة في الجامعات يتمسكون بنسوع من أنواع وحدة كل شيء . ومعظم كتب اللاهوت المتحرر تنادي بوحدة الوجود . لكن البدء بالاشخصى - كما في حالة وحدة الوجود - لا يمكن أن يجيب اجابات حقيقية عن سبب الوجود المعقد أو الشخصى أو على وجود شخصية الانسان أو انسانية الانسان .

(٣) أما الاجابة الرئيسية الثالثة فهي تبدأ بشخص وبذلك نصل الى نهاية كل الاجابات الممكنة في تعليل الوجود . وقد تظهر هذه الاجابات بسيطة لكنها حقيقية . وهذا لا يعنى أن هذه الاجابات الثلاث لا تحتمل المناقشة أو التفرع أو وجود مدارس مختلفة في تفسيرها ، لكن هذه الاجابات تمثل المدارس الرئيسية الممكنة . قال أحدهم انك كلما تعمقت في السؤال الرئيسى فإن احتمالات الاجابة ستكون بسيطة وواضحة . لا توجد اجابات أساسية كثيرة لأي سؤال هام في الحياة .

والآن دعونا نتأمل فيما نعنيه بالبداية الشخصية للوجود . اننا نقصد أن شخصا بدأ كل شيء آخر . (وهذا عكس البداية اللاشخصية) .

دوفى هذه الحالة يكون لشخصية الانسان معنى • وهذه ليست فكرة مجردة •

تعبت من كثرة الاجابة على السؤال الذى يوجه لى دائما : لماذا لا تقدم الانجيل البسيط ؟ وللاجابة على ذلك اقول : ينبغى أن تقدم الانجيل البسيط بحيث يكون بسيطا للمسامع الذى تتحدث اليه ، والا فلن يكون بسيطا • ومشكلة الانسان فى عصرنا الحاضر بسيطة ، فهو يتساءل لماذا وجد الانسان بلا معنى ؟ انه يحس انه ضائع ، بل انه صفر • وهذه نكبة جيلنا ولب مشكلة الانسان المعاصر •

اما اذا بدأنا بالبداية الشخصية وقلنا ان هذه البداية هى أصل الوجود عندئذ يصبح للشخص معنى كما يمكن تحليل طموح الانسان لأن طموح الانسان متعلق تماما بأصله •

والمسيحى عنده الجواب على هذه النقطة • بل انه جواب هائل ! اذا لماذا نستمر فى ترديد الحقائق العظيمة بكل الطرق التى لا يفهمها أحد ؟ لماذا نكتفى بأن نحدث أنفسنا بينما يهلك الناس من حولنا ونحن ندعى أننا نحبهم ؟ ان ثمة الانسان اليوم انه لا يجد معنى للانسان • اما لو بدأنا بالبداية الشخصية فسنصل الى حالة مختلفة تماما • سنجد الحقيقة أن الشخصية لهسا معنى لأنها ليست فى حالة اغتراب عن الموجودات التى وجدت والموجودة والتى ستوجد • هذه هى اجابتنا • وبهذه الاجابة نجد حلا ليس فقط لمشكلة الوجود ، او لمشكلة الوجود المركب ، بل لبيان سبب اختلاف الانسان وتميزه بشخصية تميزه عن سائر المخلوقات اللانسانية •

وسنفسر ذلك بتشبيه من جبال الألب فى سويسرا حيث تجد واديين أحدهما ممتلئ بالماء والآخر مجاور له لكنه ليس فيه ماء • ومن الغريب انه فى بعض الأحيان تفيض بعض العيون المائية فى الجبل وعندئذ يمتلئ الوادى الثانى بالماء •



وما دام مستوى الماء فى (ب) مساو لمستواه فى (ا) أو أقل منه فكان معظم السائحين يظنون أن الوادى (ب) يستمد ماءه من (ا) •

لكن اذا ارتفع المستوى فى الوادى (ب) عن مستوى الوادى (١) بحوالى ثلاثين قدما ، فلا يمكن أن يفكر أحد فى هذه الحالة بأنه يستمد ماءه من (١) . فاذا اعتبرنا أن بداية الحياة ترجع لشخص عندئذ نفهم أن طموح الانسان للوصول الى الشخصية له سبب معقول . أما اذا بدأنا بما هو أقل من الشخصية ، فاننا نختزل الشخصية الى ما هو لا شخصى . والفكر العلمى المعاصر يفعل هذا عندما يختزل الأشياء ، وبذلك تتحول كلمة « شخصية » الى لا شخص زائدا بعض التعقيدات والتركيبات . وفى الفكر العلمى الطبيعى Naturalistic فى كل العالم سواء أكان فى ميدان علم الاجتماع ، أو علم النفس ، أو علم الأحياء ، نجد أن الانسان يختزل الى شيء لا شخصى مضافا اليه بعض التعقيدات دون أى فرق جوهري بين الشخص والشخص .

أما اذا اعتبرنا أن بداية الحياة شخصية ، فعلىنا أن نختار بين فكرتين : هل هو اله أم آلهة ؟ والصعوبة فى اختيار الحل الثانى (الآلهة) بدلا من اله ، أن الآلهة المحدودة ليست كبيرة بالقدر الكافى . فلكى نجيب بأن بداية الحياة بداية شخصية نحتاج الى شيئين : اله شخصى لا محدود ثم الى وحدة وتعدد فى هذا الاله .

دعونا نفكر فى الحاجة الأولى : اله شخصى لا محدود . هذا هو الاله الوحيد الكافى . لقد أدرك أفلاطون أنه يجب أن يكون هناك مطلقات Absolutes والا لما أصبح لأى شيء معنى . لكن المشكلة التى واجهها أفلاطون أن آلهته لم تكن كبيرة كبرا كافيا حتى تسد كل الاحتياجات . ومع أنه توصل الى الاحتياج لكن هذا الاحتياج ذهب ادراج الرياح لأن آلهته لم تكن كبيرة كبرا كافيا حتى تصبح النقطة المرجعية أو محطا لمطلقاته ومثله . وفى الأدب اليونانى نجد أن القدر يتحكم أحيانا فى الآلهة ، وأحيانا أخرى تتحكم الآلهة فى القدر . لماذا هذا الارتباك ؟ لأن كل شيء فى تفكيرهم يتحطم عند هذه الفكرة : أن آلهتهم ليست كبيرة كبرا كافيا . لذلك نحن فى حاجة الى اله شخصى غير محدود .

الحاجة الثانية : اله شخصى واحد متعدد .

لا مجرد فكرة أو مفهوم مجرد عند الوحدة والتعدد لأننا - كما

رأينا - نحتاج الى اله شخصي • لذلك نحن في حاجة الى شخص واحد متعدد • وبدون ذلك لا نجد اجابة شافية •

ان ما نتحدث عنه الان هو الحاجة الفلسفية في دائرة الوجود •
من حقيقة وجود الله • انه موجود •

ولا توجد اجابة فلسفية اخرى مقنعة غير الحقيقة التي سقناها •
فتش كيفما شئت في فلسفة الوجود أو في أى فلسفة أخرى • فلن تجد
اجابة أخرى غير هذه الاجابة التي حددنا معالمها •

فلا توجد الا فلسفة (بل ديانة) واحدة يمكن أن تسد هذا الفراغ
في الفكر العالمى سواء في الشرق أو الغرب ، قديما أو حديثا • لا يوجد
الا اله واحد يمكن أن يسد هذا الاحتياج هذا هو اله المسيحية • فهو
ليس مجرد مفهوم لكنه اله موجود • ولا حل سواه • ويجب أن نخجل
نحن المسيحيين لأننا اتخذنا موقفا دفاعيا مدة طويلة بينما الموضوع
لا يحتاج الى دفاع حيث لا يوجد حل آخر •

ويجب أن نلاحظ أن كلمة « اله » من أكثر الكلمات غموضا • فإذا
نظرنا اليه كمجرد كلمة لغوية مكونة من ثلاثة حروف : ا - ل - ه •
فالكلمة لا تعنى شيئا الا اذا اشتملت على مضمون • وهى كلمة
غامضة لأنه أى كلمة أخرى تحمل في ثناياها معناها • فكلمة اله اذا
لا ترد على المشكلة الفلسفية بخصوص الوجود ما لم نعطيها مضمونا •

أما المضمون اليهودي المسيحي لكلمة « اله » كما هو معلن في
العهدين القديم والجديد فيعطى الاجابة لمشكلة الوجود : وجود الكون
المعقد - وجود الانسان كائن •

ما هو هذا المضمون ؟ انه اله شخصي غير محدود • اله واحد
في تعدد في نظام الثالث •

يسألني البعض من حين لآخر : كيف أومن بالثالث ؟ وأنا أجيب
اجابة واحدة • ان لم أومن بالثالث فأنا واحد من اللادريين • لأنه
بدون الثالث - هذا النظام السامي للوحدة والتعدد - فلن تكون هناك
اجابات •

دعونا نعود مرة أخرى إلى الشخص اللامحدود • فسنجد أن لا محدودية الله في جانب الإنسان والحيوان والنبات والآلة في جانب آخر وبينهم هوة عظيمة أو بون شاسع • قاله يقف وحده لا محدود مطلق بخلاف أي شيء آخر لأنه وحده اللامحدود • كل شيء وجد وخلق كما أن كل شيء غير مستقل لكن الله وحده هو المطلق المستقل استقلالاً كلياً • فباعتبار أن الله غير محدود نجد أن الإنسان منفصل انفصال الذرة أو الآلة عن الكون •

أما إذا تأملنا في الله كشخص فسنجد الفرق العظيم بين الإنسان وبقيره من المخلوقات (كالحیوان والنبات والآلة) • لماذا ؟ لأن الإنسان مخلوق على صورة الله • هذه ليست مجرد عقيدة أو فكرة نردها دائماً كما يقول مكلوهان McLuhan لكنها سداة المشكلة ولحمتها • خلق الإنسان على صورة الله لذلك فهو شخصية ومن هذه الناحية نجد أن الهوية ليست بين الله والإنسان بل بين الإنسان وسائر الأشياء • أما باعتبار اللامحدودية فنجد أن الإنسان منفصل تماماً عن الله انفصال الذرة عن الكون •

وهذا رأينا الذي يوضح أن الإنسان شخص لكنه محدود • وليس هذا أفضل جواب لمشكلة الوجود بل أن هذا هو الجواب الوحيد • وهذا ما يجعلنا نتمسك بمسيحيتنا تمسكاً منطقياً متكاملًا • قاله الوحيد أن الله الشخصية اللامحدودة موجود فعلاً •

علينا الآن أن نناقش الجزء الثاني بأكثر استفاضة ونعني به شخصية الاله الواحد المتعدد في نظام الثالوث • نادى اينشتاين بأن العالم كله يمكن ارجاعه إلى الكهرومغناطيسية والجاذبية •

وقرب نهاية حياته كان يبحث عن تآلف الجاذبية والكهرومغناطيسية • لكنه لم يتوصل إلى تلك القوة الخارجة عنهما والتي تربطهما معاً • لكن ماذا كان يحدث لو اكتشف هذه القوة ؟ لقد كانت تمثل لنا معنى وحدة في تعدد في عالم الماديات • لكن هذا لن يحسم الموضوع لأنه لا يمس الشخصية من قريب أو بعيد • فلو توصل إلى اكتشافه هذا لما أمكن تفسير الحاجة إلى التعدد في الوحدة الشخصية

للمقارنة ، دعونا نفكر فى قانون الايمان النيقوى ★ • ثلاثة أقانيم اله واحد • وكم نسر أنهم اختاروا كلمة أقنوم وهى تعنى شخص • وسواء عرفنا معنى هذه الكلمة أو لم ندركها فاننا نجد أنها قد فرضت نفسها على عصرنا وما فيه من مناقشات • ثلاث شخصيات حقيقية موجودة ، فى محبة متبادلة بينها ، وفى اتصال دائم • هذه الشخصيات موجودة قبل أى شىء آخر •

إذا لم يكن الله هكذا ، لتصورنا أن الله فى حاجة أن يخلق شيئاً أو شخصاً ليحبه ويتصل به • وفى هذه الحالة يصبح الله فى حاجة الى الكون كما أن الكون فى حاجة الى الله • لكن الله لم يكن فى حاجة أن يخلق شيئاً كما أن الله ليس فى حاجة الى الكون كما يحتاجه الكون • لماذا ؟ لأنه يوجد ثالث حقيقى كامل • فالأقانيم الالهية كانت تحب بعضها بعضاً وفى اتصال دائم قبل خلق العالم •

وليس هذا مجرد حل للمشكلة الفلسفية المزمنة عن الحاجة الى الوحدة فى تعدد بل ، للوحدة المتعددة للشخصية • ولا يمكن أن توجد الوحدة المتعددة قبل وجود الله لأن الله موجود قبل كل شىء • وفى ضوء الثالث نجد أن الوحدة والتعدد هى الله ذاته • ثلاثة أقانيم لكنها تكون الها واحداً • هذا هو الثالث بكل معناه ولا يمكن أن يكون أقبل من ذلك • ويجب أن نقدر آباءنا الذين عرفوا هذا جيداً سنة ٣٢٥ ميلادية • عندما أكدوا على الأقانيم الثلاثة فى الثالث كما هو واضح فى الكتاب المقدس ولنلاحظ أنهم لم يخترعوا هذه العقيدة (الثالث) للرد على الأسئلة الفلسفية التى كان يثيرها اليونانيون فى ذلك العصر بمهارة كاملة • بل على العكس من ذلك تماماً • فمشكلة الوحدة والتعدد كانت موجودة لكنهم اكتشفوا أنهم يملكون الجواب الوحيد وهو الثالث كما ورد فى الكتاب المقدس • وعلى ذلك فانهم لم يبتدعوا التثليث لسد الحاجة الملحة بل أن الثالث كان موجوداً وكان هو الرد الشافى لكل سؤال • واكتشفوا أن فى الثالث الجواب على كل

★ وهو القانون الذى وضعه مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ للرد على بدعة أريوس •

محاوِرا اليونانيين عن الوحدة والتعدد وكل محاولاتِهم لايجاد تعارف
لم يتوصلوا اليها .

ونكرر ان الثالث ليس افضل اجابة بل انه الاجابة الوحيدة .
فلم يتمكن شخص أو فلسفة معينة من ايجاد حل لمشكلة الوحدة والتعدد .
لذلك عندما نسال ان كنا نحس بالحرج الفكرى بخصوص موضوع
الثالث فاننا ندير المناقشة الى لغة السائل ومفاهيمه عن الوحدة
والتعدد . ففي كل فلسفة نجد هذه المشكلة . ولم تتوصل أى فلسفة
منها الى الحل ، أما فى المسيحية فنجد الحل فى الثالث . والجواب
الوحيد للوجود ان الله المثلث الاقانيم موجود .

وبهذا نكون قد أدركنا شيئين : ان الحل الوحيد لمشكلة الوجود
فى الميتافيزيقا هو ان الله ذات لا محدود موجود وان هذا الاله مثلث
الاقانيم ولعلنا نتفق الآن على ان الفلسفة والدين يبحثان عن حلول لنفس
المشاكل . ولنلاحظ اننا عندما نبحث المفهوم الاساسى للوجود فاننا نجد
ان الجواب الوحيد فى المسيحية . وهذه الحقيقة - ان فهمتها - ستغير
حياتك كلية بغض النظر عن اتجاهك مهما كنت محافظا أو مبشرا
بالانجيل .

وبهذه المناسبة اضيف شيئا . فانى لاحظ ان كثيرين من المحافظين
الانجيليين يحرصون على ان يتفق الحق مع العقائد أو مع ما يقوله
الكتاب المقدس . ومع انى لا اعتقد انه يوجد من يتمسك بالوحي
الالهى الكامل كما افعل انا لكنى اقول ليس هذا هو نهاية الحق (كم
تقدمه المسيحية وكما يقدمه الكتاب المقدس نفسه) لكن الحق المسيحى
حقيقى لكل ما هو موجود . فيمكنك ان تذهب الى اطراف الأرض ولا
تخاف كما كان يعتقد الاقدمون عندما ظنوا انهم اذا ذهبوا الى طرف
الأرض فسيسقطون وتبتلعهم التنانين . فيمكنك بمناقشاتك الفكرية ان
تصل الى آخر المدى لأن المسيحية ليست مجرد حقيقة تناسب العقيدة
ولا مجرد حقيقة تناسب ما قاله الله فى الكتاب المقدس لكنها حقيقة لكل
ما هو موجود . ولن تسقط من طرف الأرض انها ليست مجرد نموذج
تقريبى لكنها حقيقة لكل ما هو موجود ، وعندما يفهم الكارزون هذه
الحقيقة ، وعندما تتطور كرازتنا الى هذه النقطة عندئذ تحدث الثورة

• الحقيقة • فتحصل على شيء جميل حتى ، شيء قوى فى مواجهة عالم فقير ضائع • هذا هو الحق المسيحى كما أعلنه الله فى كتابه المقدس • لكن لنلاحظ أننا إذا أردنا أن نستخدم هذا الحل فيجب أن يكون عندنا الإجابة الكتابية الكاملة ولا نختزلها لتكون مجرد وحدة كل شيء • **Paneverythingism** المنتشرة فى الشرق أو وحدة كل شيء فى اللاهوت المعاصر (سواء البروتستانتى أو الكاثولىكى) ولا نسمع لللاهوت وحدة الوجود أن يتسلل إلينا ولا نرضى أن نختزل مسيحيتنا إلى الفكر الوجودى • أن كنا نملك هذه الإجابات الهائلة فيجب أن تكون المسيحية هى الإجابة الكتابية • يجب أن نملك الوضع الكتابى الحقيقى حتى يمكننا أن نجيب على المشاكل الفلسفية الأساسية عن الوجود ويجب أن نتسلح بالمضمون الكتابى الكامل عن شخصية الله الذات اللامحدود • **المثلث الأقانيم** •

والآن دعونى أعبر عن هذا بطريقتين :

أولاً : بدون الله الذات اللامحدود ، الله الواحد المتعدد فلا توجد إجابة لمشكلة الوجود • ويمكننا أن نقول هذه الحقيقة بطريقة أخرى •

ثانياً : إن الإله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم قد تكلم • فهو موجود هناك وهو غير صامت • فلا فائدة من إله صامت • وقد تكلم ليعرفنا من هو وأنه كائن قبل كل شيء • ولذا فنحن نملك الجواب لمشكلة الوجود • إنه إله غير صامت • وهذا ما جعلنا نملك الحل • لأن الإله الشخص غير المحدود المثلث الأقانيم لم يصمت بل عرفنا بذاته •

ضع مفهومك عن الوحي والإعلان فى ضوء هذه العبارات وستجد أنه يتحدى الفكر المعاصر • إنه إله غير صامت وهذا ما جعلنا نعرفه ، لأنه قد تكلم • ماذا أخبرنا ؟ هل حدثنا عن الأشياء الأخرى فقط ؟ لا بل حدثنا الحق الحقيقى عن ذاته - عن الله الشخص اللامحدود • المثلث الأقانيم • أننا نملك الإجابة على مشكلة الوجود • ويمكننا أن نتقول هذا بالطريقة التالية :

بشأن الميتافيزيقا وبحث الوجود فإن الإعلانات العامة والخاصة

تحدثنا بصوت واحد • ومهما غيرنا في طريقة ذكر هذه الحقيقة فأننا
نعبر عن نفس الحقيقة من زوايا مختلفة اختلافا طفيفا •

وفي الختام ، فإن الانسان اذا بدأ بنفسه ، يستطيع أن يحسده .
مشاكل الوجود لكنه لا يستطيع من ذاته أن يجد الحلول للمشكلة •
قالحل لمشكلة الوجود أن الله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم ،
موجود • وهذا الاله الشخص اللامحدود المثلث الأقانيم غير صامت •

تذييل :

قد يقول البعض انه يوجد احتمال آخر : نوع من الثنائية • أى ،
وجود متقابلين في نفس الوقت متساويين وأبديين • مثلا العقل (أو
المثل والأفكار) والمادة • أو بالنسبة للأخلاق : الخير والشر • وعلى كل ،
ففي مجال الأخلاق ان تمسكنا بهذا الوضع فلا يوجد سبب نهائي
يجلعلنا نصف انسانا بأنه خير أو شرير • فاختيار احدى الصفتين يصبح
ذاتيا ما لم يوجد شيء خارج عنهما • فان وجد هذا الشيء لا تصبح
ثنائية • أما في مجال الميتافيزيقا فان ما يحيرنا حقا انه لا يوجد من
ينتهي في تفكيره الى الثنائية • فاذا رجعنا الى Yin (١) ويانج Yang
فجد بينهما شكلا مظللا هو التاو • Tao

وفي الزرداشتية (٢) نجد شكلا أو شيئا غير محسوس • وببساطة ،
ففي أى صورة من صور الازدواجية نجد أنفسنا أمام نوع من عدم
الاتزان أو التوتر ونجد حركة نحو الوحدة • فاما ان الانسان يحاول
أن يجد وحدة تربط النقيضين أو أنه في حالة المفاهيم المتوازية (المثل
والمادة) يحاول أن يجد علاقة أو صلة بين الاثنين أو يتركهما يسيران
معا في توافق دون وحدة تحافظ على هذا التوافق • وهكذا نجد في
أحدى المحاولات ان حالة التوازي تسير في اتجاه دائم • اما أن يخضع
الواحد للآخر أو أن يصبح أحدهما مجرد وهم •

(١) مفاهيم الفلسفة الصينية القديمة تعبر عن النور والظلمة ،
الصلاية والليونة ، الذكر والأنثى • الخ •
(٢) ديانة إيرانية قديمة تتميز بالازدواجية (النور والظلمة) •

فان كان عنصرا الثنائية غير شخصيين فان هذا يقودنا الى تفهم
المشكلة (فى الوجود والأخلاق) كما فى الشكل النهائي لشيء غير
شخص • لذلك فالثنائية بالنسبة لى لا تعتبر حلا جذريا كالحلول الثلاثة
التي عالجتها فى هذا الكتاب •

وربما كان من المناسب ان نشير الى انه فى مجال الوجود
والأخلاق نجد ان المسيحية تقدم حلا فريدا كافيا للثنائية الحالية ولو
انها أصلا وحدوية •

ففى الوجود الله روح ، وهذا ينطبق على الله الآب وعلى الروح
القدس وكذلك على الابن قبل التجسد وبدا نبدا بالوحدة • ولكن اذا
بدا الله اللامحدود فى خلق العالم المادى من لاشيء فهنا تبدأ الثنائية •
ويجب ان نلاحظ انه مع ان الله خلق شيئا لم يكن موجودا من قبل ، ومع
ذلك فهو ليست بداية من لا شيء لأن الله كان هناك ذاتا لا متناهية لى
يريد •

الفصل الثاني

الحاجة الى البحث في الأخلاق

نتنقل الآن الى المجال الثاني من مجالات الفلسفة وهو الذى يبحث
فى موضوع حيرة الانسان .

فالانسان امام مشكلتين : اولهما انه شخص مختلف عن كل ما
هو لا انساني لكنه مع ذلك محدود . ولأنه محدود فلا يتمتع بنقطة
تكاملية كافية فى ذاته . وكما قال جان بول سارتر « ان وجدت نقطة
محدودة ليس لها نقطة مرجعية لا محدودة فهي نقطة غامضة بلا معنى »
وبالرغم من ذلك فالانسان مختلف عن كل ما هو لا انساني لأنه ذات
أشخصية وهو يتمتع بانسانية الانسان التى تميزه عن كل ما هو
لا انساني . هذه هي المشكلة الأولى . فهو مختلف بانسانيته لكنه
محدود . فهو لا يملك فى ذاته نقطة تكاملية .

أما المشكلة الثانية فهي سمن الانسان . وقد لا نحب هذه الكلمة
لما تحتويه من رومانسية تربطها بالماضى (عصر النبلاء) لكن الانسان
عجيب ، فهو رغم سموه . قاس . فالانسان مخلوق سام عجيب وفى
وفى نفس الوقت يتميز بقوة رهيبه عاشت معه فى كل حقب التاريخ .

ويمكن أن نعبر عن هذه الحقيقة بأسلوب آخر فنقول ، اغتراب
الانسان عن نفسه وعن غيره من الناس فى مجال الأخلاق . وهذا
يأتى بنا الى كلمة « أخلاق » . فقد كنا نتحدث فى الفصل الأول فى
مجال الميتافيزيقا ، أما الآن فانتنا نأتى الى مجال الأخلاق .

فاذا تركنا الاجابة التى تقول انه لا اجابة فى مجال الفكر
والعقل فان الاجابة الأولى التى تجيب على هذه الحيرة فى الأخلاق
(هى كما ذكرنا فى مجال الميتافيزيقا) البداية اللاذائية أو غير

الشخصية فعندما ندرس محدودية الانسان وقسوة يبدو لنا ان هاتين صفتان مختلفتان لا صفة واحدة . ولقد ظل الانسان يعتقد انهما صفتان مختلفتان . فمحدودية الانسان تعنى صغره . فهو ليس نقطة مرجعية لنفسه . لكنه كان ينظر الى قسوته باعتبارها منفصلة ومتميزة عن محدوديته . لكن يجب أن نلاحظ شيئا ، فان كنا نوافق على البداية اللاشخصية فلا بد أن نصل فى النهاية الى أن محدودية الانسان وقسوته شيء واحد . هذه قاعدة مطلقة مهما كان نوع اللاشخصى الذى نبدأ به سواء كان نوعا من الفرض العلمى كالطاقة والجزيئات أو كان من اللاهوت العصرى - فلا بد أن نصل فى النهاية ان هاتين الصفتين هما صفة واحدة . ولكن اذا بدأنا ببداية لا شخصية فلن تبقى الأخلاق أخلاقا . بل اننا اذا بدأنا ببداية لا شخصية فان الاجابة عن المشكلة الأخلاقية تتحول الى تأكيد انه لا توجد أخلاق - مهما كانت الطريقة المعقدة التى نعبر بها عن هذه الأفكار .

فالبداية غير الشخصية تؤدي الى تساوى كل شيء فى مجال الأخلاق . والى تحول الأخلاق الى صورة أخرى من صور الميتافيزيقا فى بحثها عن الوجود وتختفى الأخلاق نهائيا من الفلسفة ولا تبقى غير الميتافيزيقا .

فاذا وقفنا برهة عند هذا الموقف فلا بد أن نتحدث عما هو ضد المجتمع أو ما لا يرضى عنه المجتمع أو حتى ما لا أرى أنا عنه . لكننا لن نستطيع أن نتكلم عن الصواب والخطأ . فاذا بدأنا باللاشخصى فان اغتراب الانسان الذى يحس به الآن يصبح نتيجة للصدفة فقط . ويصبح الانسان بائسا عن خط السير العادى للكون الذى بدأ ببداية لا شخصية . فاذا بدأنا بهذه البداية اللاشخصية فلا يمكن أن يكون ما يحسه الانسان من اغتراب أو توتر أخلاقيا واذا تقدمنا فى تفكيرنا على هذا المنوال فسنجد أن الانسان أصبح خارجا عن نظام الكون وأساسه .

فافتراض البداية اللاشخصية يجعلنا نفترض أن الانسان - بمحض الصدفة - أصبح مخلوقا له طموحه وآماله ودواقعه الأخلاقية التى لا تتحقق بصورة مثالية نهائية فى عالمنا الحاضر . بينما نجد أن هذه الدوافع الأخلاقية ليس لها أى معنى فى الكون الذى نعيش فيه .

وهنا نصل الى الاغتراب عن الكون وحيرة جيلنا المعاصر . وهى الصورة التى عبر عنها جياكوميتى *Giacometti* بأشكاله التى تقف مفترية عن كل انسان وعن المشاهد الذى ينظر اليها فى المعرض .

ان مشكلة جيلنا المعاصر هى مشكلة الاغتراب عن الكون فى المجال الأخلاقى . فالانسان يشعر بدوافع أخلاقية لكنه يجد أن دوافعه مختلفة تماما عما هو كائن أو متبع فى العالم .

وربما تسأل : لماذا استخدم تعبير « الدوافع الأخلاقية » ؟ وقد اخترت هذا التعبير لأنى لا أريد أن أتحدث عن قاعدة سلوكية معينة لكنى أتكلم عن الانسان الذى يحس أن شيئا ما صحيح أو خطأ . وكل إنسان يحس فى داخله بهذا الميل أو الدافع الأخلاقى . ولأن تجسد انسانا يخلو من هذا الدافع حتى فى التاريخ القديم . فالشابة الصغيرة التى تحترف البغاء لا تخلو من هذا الدافع الأخلاقى الى حد ما . وحتى أصحاب مذهب السلوكية أو مذهب الحتمية فى علم النفس لا تخلو حياتهم من الدافع الأخلاقى مع انهم ينكرون ان الأخلاق - كإخلاق - موجودة . لذلك فأننا نرى الانسان يعانى من الدافع الأخلاقى الذى يقوده الى الاغتراب عن الكون .

ان بدأت بالاشخصى فلا مكان للأخلاق كإخلاق . ويصبح الكون بلا مقياس يعطى لكلمات مثل الصواب والخطأ معنى نهائيا . فان بدأت بالاشخصى فالكون يصمت أمام مثل هذه الكلمات .

لذلك فمن وجهة نظر المؤمنين بوحدة الوجود *Pantheists* يصبح أكبر خطأ هو عدم تقبل فكرة الاشخصية . وإذا تأملت فى الشرق حيث انتشرت فكرة وحدة الوجود ووضعت لها قواعد ثابتة (أكثر من الغرب فى لاهوتنا العصرى أو فى حركة الهيبيز) فستجد أيضا ان الخطأ الأعظم أو النهائى فى الانسان (أو الكرماء * النهائى ان

* تعبير فى الديانة البوذية يعنى لفظيا : الأعمال . وهى العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء فى طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذى يقرر قدر ذلك المرء فى طور تناسخى تال .
(العرب)

أردنا) هو فكرة عدم تقبل الانسان للشخصية • او بمعنى آخر عدم تقبله لنفسه •

وفي الهندوسية التي تؤمن بوحدة كل شيء نجد تطويرا لفكرة عدم وجود فرق مطلق بين القسوة وعدم القسوة • وهذا ما نراه في شخصية كالي Kali • وفي كل ظهورات الالهة في الهندوسية نجد أنها تظهر في صورة أنثى • ويقول البعض ان الهندوسية فيها فكرة الثالوث لوجود ثلاثة وجوه مختلفة في احدى الصور المحفورة • لكن هذه الوجوه الثلاثة تظهر لأول وهلة لمن لا يفهم في فن النحت أما المتأمل في النحت فيجد أنها تحتوى على خمسة وجوه (وهو التعليم الهندوسى) أربعة في شكل دائرى ، وواحد الى أعلى وهو ينظر الى أعلى حتى ولم تره • فلا وجود للتثليث في الهندوسية والأهم من ذلك أن هذه الظهورات الخمسة لا تمثل شخصيات بل مجرد تجليات أو ظهورات للاله غير الشخصى • وأحد هذه الظهورات أنثى • لأن الأنثى يجب أن تظهر مثل الذكر • والعجيب أن الكالى (الأنثى) هي المخربة المدمرة دائما • يصورونها ولها زعانف كبيرة وجماجم تحيط برقبتها • لماذا ؟ لأن القسوة عندهم مساوية تماما لعدم القسوة • وهكذا نجد الفشنو * Vishnu الذى يأخذ ثلاثة مظاهر ولكن الى جانبه نرى الكالى التي تمزق وتخرب وتستطيع أن تقطعك اربا • فالقسوة في هذا النظام متساوية تماما مع عدم القسوة •

لماذا كانت القسوة ممتثلة في أنثى ؟ لا أحد يعرف • لكنى أعتقد أنها صورة ممسوخة من شخصية حواء • فالخرافات دائما ترجع الى فكرة معينة لكنها مشوهة أو ممسوخة •

ومن الواضح انك عندما تمتحن الفكر اللاهوتى العصرى أو فكرة وحدة الوجود في الشرق فأنك تصبح الى الحد الذى لا تستطيع أن تفرق فيه بين الخطأ والصواب •

وفي وحدة كل شيء في الغرب نجد بعض الناس يعارضون هذه

★ أجد ظهورات الاله في الهندوسية •

الحالة للاحتفاظ بالفرق بين القسوة ، وعدم القسوة • وهم يحاولون
الا يصلوا الى النقطة التي ينعدم فيها معنى الخطأ والصواب • لكنهم
لا ينجحون تماما • فحالهم يشبه من يلقي حجرا من على قمة جبل
فيصعب إيقافه •

انك اذا بدأت بالاشخصي فلن تصل الى المطلق النهائي ان الى
فرق واضح بين الخطأ والصواب مهما استخدمت الفسافة بينية او
مسيحية ولن يبقى بعد ذلك الا كل ما هو نسبي مهما اختلفت الطريقة او
الثقافة • يبقى فقط ما هو اجتماعي أو ثقافي أو احصائي ولا شيء غير
ذلك • وتصل الى مواقف أخلاقية نسبية ، لكنك لن تصل الى الأخلاق •

وأخيرا يجب أن تفهم أنه في هذا الإطار لا معنى للصواب والخطأ
بتاتا • فالأخلاق كأخلاق تختلف ولا يبقى الا ما وراء الطبيعة •

ونحن نسير بخطى واسعة نحو هذا الاتجاه في حضارتنا الحديثة •
تأمل فيما يقوله مارشال مكلوهان Marshall McLuhan
« لقد انتهت الديمقراطية » • لكن ماذا يحل محل الديمقراطية او
الأخلاق ؟ يقول « سيأتي الوقت وهو ليس بمستبعد في عصر الالكترونيات
عندما تتمكن من توصيل كل فرد بعقل الكتروني كبير • وهذا العقل
سيحدد المتوسط في لحظة ما (متوسط أكثر الافعال شيوعا وقبولا)
وعندئذ يصبح هذا المتوسط هو مقياس الصواب والخطأ •

قد تقول ولكن هذا امر مستبعد • لكني أقول لك بل ان كينزى★
وضع نفس الفكرة عن الجنس واسماها الأخلاقيات الاحصائية للجنس •
وهذه هي الطريقة التي تسير عليها السويد الحديثة في اخلاقيات
الجنس • فهذه ليست مجرد نظريات بل لقد وصلنا الى هذا الحد في
حضارتنا الغربية لأن الرجل اعتبر نفسه مجرد وحدة طاقة لأنه بدأ
بداية لا شخصية • اذا لقد وصلنا الى الأخلاقيات الاحصائية ، وفي ظل
هذا النظام نجد انفسنا ببساطة بلا اخلاق •

★ عالم أمريكي أجرى بحثا كبيرا عن الجنس وكتب كتابا عن هذا
البحث أحدثت رجة في الفكر العالمي في هذا الموضوع •

(المغرب)

فإذا استخدمنا لغة الدين بدلا من لغة العالم فقد نتفادى بعض التوتر لكن عندما نتعمق الى ما وراء الكلمات الدينية لا نجد معنى حقيقيا غير الاختزال الطبيعي السيكولوجي للأخلاق الى مجرد ردود فعل أو ردود فعل شرطية • وخلف الكلمات التي تبدو دينية تجد نفس المشكلة التي نجدها خلف الكلمات الدنيوية • فيختفى مفهوم الأخلاق كأخلاق وقد عبر عن ذلك المركيز دى ساد أفضل تعبير عندما قال عن الحتمية الكيميائية « ما هو الصواب ؟ » ولا يمكن لأحد أن يقول خلاف ذلك إذا بدأ ببداية لا شخصية •

دعونا نلخص ما سبق :

إذا بدأنا بالاشخصى فلا معنى ولا تفسير للكون المعقد أو لشخصية الانسان (كما بينا فى الفصل السابق) ولا نقول ان المسيحية عندها جواب أفضل بل انك اذا بدأت بالاشخصى فلن تجد جوابا على الاطلاق لمشكلة الوجود •

وفى مجال الأخلاق نجد نفس الشيء • ان بدأت بالاشخصى (مهما عبرت عن هذا الاشخصى) فلا معنى للأخلاق •

والآن دعونا نتمعن فى الاجابة العكسية ، أى البداية الشخصية • بهذه البداية يمكن أن نفصل بين الميتافيزيقا والأخلاق • وهذا شيء هام ولو أنه يبدو بسيطا فإذا بدأنا بالبداية الاشخصية فسنجد ان الميتافيزيقا والأخلاق يصلان فى النهاية الى شيء واحد • أما البداية الشخصية فتفصل بينهما • وبمعنى آخر فان محدودية الانسان تظل منفصلة عن قسوته •

وعلى أى حال فأننا عندما نقول ذلك نواجه مشكلة عويصة • اذا بدأنا بداية شخصية ونظرنا الى الانسان كما هو الان فكيف نفسر المشكلة المحيرة عن قسوة الانسان ؟ ومن أى زاوية ننظر اليها ؟

هناك احتمالان • الأول ان الانسان فى قسوته - التى نراها الآن - هو نفس الانسان كما وجد أصلا من البداية • وفى هذه الحالة تصبح الحروف ا ن س ا ن رمزا للقسوة ولا يمكن فصل الانسان

عن القسوة • لكن ان كان هذا صحيحا فائنا نواجه مشكلتين • واني
أريد أن أبحث المشكلة الأولى بشيء من الاسهاب ان كان الله الذات
اللامحدود قد خلق الانسان القاسى فكيف نهرب من النتيجة الحتمية ان
هذا الاله الذى خلق الانسان قاسيا لا بد أن يكون على نفس المستوى
من القسوة والرداءة •

وهنا يظهر امامنا المفكران الفرنسيان شارل بودليير والبرت كامو •
قبودليير المؤرخ الأديب والمفكر العظيم له قول ماثور «ان كان هناك اله
فلا بد أنه شيطان » ولا بد أن المؤمنين بالكتاب المقدس سيجفلون عندما
يقراءون هذه الجملة • لكن ان فكرنا فى معناها فسنجد بعد وقت أن
المسيحى الحقيقى سيتفق مع بودليير • ان لم يكن هناك خط فاصل فى
تاريخ البشرية بين الانسان كما هو الان والانسان كما كان أصلا فلا بد
— ان كان هناك اله — أن يكون هذا الاله شيطانا وان كنا كمسيحيين
تختلف تماما مع بودليير ، لكننا ان سلمنا بفروضة فلا بد أن نتفق معه
فى النتيجة •

وقد ناقش كامو Camus نفس المشكلة ولكن من وجهة نظر
أخرى مختلفة قليلا • فقال « ان كان هناك اله فلا يمكن أن نحارب
الشور الاجتاعية • لأننا ان فعلنا ذلك فنحن نحارب الله الذى خلق
العالم كما هو » ولا يمكن أن نعارض ما يقوله هذا المفكر ان كنا نسلم
بالفرض ان الانسان ما زال على حالته التى كان بها وان فى الانسان
قسوة أصلية ما زالت مستمرة على مر الزمن •

وعندما نصل الى هذه النقطة نجد اناسا يختارون اجابات غير
منطقية • فالنوع الأول من الاجابات هو ما ذكرناه فى الفصل السابق •
ان يقولون انه لا توجد اجابات وان كل شيء فوضى ولا معقول • ومعظم
الاجابات الدينية خصوصا فى ميدان اللاهوت الغربى العصرى المتحرر
تتجه هذا الاتجاه ان تقول « نحن لا نملك جوابا لهذا ، لكن دعونا نقفز
قفزة الايمان باعتبار الايمان ضد العقل وكل ما هو معقول فنقول ان
الرب صالح » هذا حال اللاهوت العصرى المتحرر سواء أكان يسير فى
الخط التحررى التقليدى أو يسير اثر خطوات كارل بارت Barth
لكن يجب أن ننظر الى هذه الاجابة باعتبارها جزءا من الرد الفوضى
اللا معقول •

ولقد سبق فقلت ان الناس الذين يجادلون بطريقة غير موضوعية يختارون متى يكونون غير منطقيين فى اجاباتهم • ففيما يدعون انهم يجادلون بطريقة منطقية سليمة ، اذا بهم يتغيرون فجأة عندما يصلون الى هذه النقطة فيقولون انه لا توجد الا اجابة غير منطقية عن صلاح الله اذا فاللاهوت العصرى المتحرر ينطوى تحت هذا النوع الأول من الاجابة •

واذا تأملنا هذا الاتجاه بعمق فأننا نجد الانسان عندما يصل الى هذه النقطة غير المنطقية يتوتر ويتجه اتجاهاين فى وقت واحد • الأول اتجاه للرجوع الى المنطق والعقل واذ يصل الى أن الله اله صالح متخطيا كل منطق أو عقل فهو يحس بشيء فى داخله ، أو بنوع من التوتر • ونتيجة لذلك فان العصريين الذين ينادون بهذا الحل يعودون الى العقل وكلما فعلوا ذلك يفقدون هذا الحل المتفائل تفاؤلا أعمى • فما أن يدخلوا دائرة العقل والمنطق حتى يتبخر هذا الحل المتفائل لأن كل التفاؤل الخاص بصلاح الله مبنى فى رأيهم على اللامعقولية أو عدم المنطقية • فاذا عادوا الى المنطق العقلى فانهم يعودون الى التشاؤم •

أما الاتجاه الثانى عندما يصل الانسان الى هذه الاجابة فهو الدوران فجأة للاتجاه المضاد لجعل كل الأشياء غير منطقية • وان يتجه الانسان كلية نحو اللامعقولية فانه يعود فيسأل نفسه أين أقف ؟ لذلك يجد أنه من الأفضل الاعتراف بأن كل شيء غير معقول وفوضى • ولا معقول ويقرر انه لا معنى لاستخدام التعبيرات الدينية بالمرّة • فلا يمكن حصر اللامنطقية فى جملة واحدة ان الرب صالح •

هذان هما الاتجاهان اللذان يقودان الى التوتر اذ يفكر الانسان فى اللجوء الى المنطقية فى هذه النقطة الهامة •

والمشكلة الثانية فى هذه الحالة هى :

ان قلنا ان قسوة الانسان الحالية هى نفس القسوة التى اتصف بها دائما وهى طبيعية فيه فكيف نتوقع تغييرا نوعيا فى الانسان ؟

قد يحدث تغيير كمى أى أنه قد يصير أقل قسوة لكن لا يمكن أن يحدث تغيير نوعى • فما دام الله قد صنع الانسان على الصورة التى

نرى عليها الانسان الان اذا فهذا هو الانسان • وهكذا نصل الى حالة
من التشاؤم بالنسبة للانسان وأعماله •

هاتان هما المشكلتان اللتان تواجهاننا ان اتجهنا الى فكرة ان
الانسان مخلوق بواسطة اله شخصي وان الانسان هو كما كان ، لم يتغير •

دعونا نرجع للوراء قليلا لنفترض اننا نؤمن بالبداية الشخصية •
فنقول بأن ذاتا الهية خلقت الانسان وان الانسان ليس مجرد جزء من
كل نهائي لا شخصي • أى أننا نعود الى أن الذات الالهية هي التي خلقت
الانسان لكن الانسان الحالي ليس هو الانسان الذي خلقه الله ، وان
الانسان الحالي ليس استمرارا للانسان الأول أو لنقل ان الانسان الحالي
شخص غير طبيعي شاذ abnormal فقد تغير • هذا الكلام يؤدي
الى سؤال آخر أو بالحرى علينا أن نختار اختيارا آخر • ان كان الله
قد غيره أو أنه خلقه خلقة غير سوية اذن فهو اله سيء وبذلك لا نصل
الى حل • لكن هناك احتمال آخر هو أن الانسان الذي خلقه الله قد
غير نفسه وان الانسان الحالي ليس استمرارا للانسان الأول لا لأن
الله قد أحدث فيه تغييرا بل لأنه غير نفسه فاختار الانسان حالته
الحاضرة بنفسه وبذلك اختلف اختلافا جوهريا عن حالته
الأولى • وبذا نفهم ان الانسان قاس لكن الله ليس الها سيئا • وهذا
هو الفكر اليهودي المسيحي على وجه التحديد •

لقد فحصنا كل الاحتمالات الفلسفية وعرفنا ما هو وجه الخطأ
فيها ، والى أى اتجاه تقودنا هذه الاحتمالات فى كل حالة • والآن وقد
وصلنا الى احتمال آخر نجد أنه قد حدث تغيير تاريخي فى الانسان
يشمل الزمان والمكان • كما حدثت عدم استمرارية فى حالة الانسان •
فالانسان المخلوق على صورة الله لم يجبر على طريقة سير معينة فتحول
عن نقطة تكامله الشخصى فى زمن تاريخي معين • واذ فعل ذلك صار
شخصا آخر غير الانسان الأول • وصارت حيرة الانسان مشكلة
أخلاقية أكثر منها مشكلة ميتافيزيقية فالانسان فى زمن محدد غير نفسه
وهكذا نجد الانسان فى حالة مختلفة عن حالته الأولى التي خلق عليها
وكل شيء يتوقف على هذه الحقيقة ان الانسان الآن شاذ غير سوى بعكس
الانسان الأول • وطالما اختلف الفكر المسيحي مع فكر الفلاسفة غير
المسيحيين حول هذه النقطة • فهؤلاء الفلاسفة ينادون بأن الانسانية

الحالى انسان سوى اما المسيحية الكتابية فتقول بأن الانسان تفسير
قأصبح انسانا غير سوى .

ومن الطريف بهذه المناسبة أن تعلم أن هيجار قال « لا يمكنك أن
تصل الى اجابات نهائية ان قلت ان الانسان سوى دائما » وهو يعبر
بطريقته الخاصة عن ان الانسان غير سوى لكنه افترض نوعا مختلفا
تماما من الشذوذ هو شذوذ فى المعرفة بمفهوم أرسطو . لكن هذا لا يقدم
اجابة حقيقية للمشكلة . اليس أمرا مثيرا أن يعترف فيلسوف غير
مسيحي مثل هيجار وهو من أعظم الفلاسفة فى العصر الحديث اننا اذا
افترضنا ان الانسان مخلوق سوى فان هذا لا يوصلنا الى شيء .

واذ نعود الى الاجابة المسيحية ان الانسان الحالى غير سوى لأنه
فى وقت زمنى معين فى التاريخ غير نفسه - لا ادراكيا أو معرفيا
بل أخلاقيا ، فاننا نواجه أربع نتائج :-

١ - اننا نستطيع الآن أن نفسر قسوة الانسان دون أن يكون الله
الذى خلقه الها سيئا .

٢ - يوجد أمل فى حل هذه المشكلة الأخلاقية غير الأصيلة فى انسانية
الانسان . فلو كانت قسوة الانسان أصيلة فى انسانيته أى لو أن
الانسان خلق على هذه الصورة لما كان هناك أمل فى الحل . لكن حيث
أن الانسان لم يخلق على تلك الصورة فهناك أمل فى الحل . وهذا
هو الاساس الذى يجعل موت المسيح النيايى الكفارى حدثا مفهوما له
دلالتة ومعناه . . . فى اللاهوت العصرى نجد أن موت المسيح حدث بلا
معنى بل مجرد كلمة الهية غير مفهومة . لكن بالنتيجة التى توصلنا
اليها يصبح لموت المسيح دلالتة فهو ليس مجرد كلمة الهية أو قصة أو
موقف وجودى لكن له معنى محدد . ونجد أملا للانسان ما دام
الانسان الحالى غير سوى .

٣ - وعلى هذا الاساس فاننا نجد اساسا قويا لمحاربة الشر بما
فى ذلك الشرور الاجتماعية والظلم الاجتماعى .

الانسان العصرى ليس عنده اساس لمحاربة الشرور لأن الانسان

فى نظره سوى اما المسيحى قلديه الاساس لأنه يحارب الشر دون أن يحارب الله • وعنده الحل لمشكلة « كامى » فنحن نحارب الشر ولا نحارب الله لأن الله لم يخلق الأشياء على الصورة التى نجدها الآن أو كما صنعها الانسان القاسى • لم يخلق الله انسانا قاسيا ولم يصنع الأشياء التى نتجت عن قسوة الانسان فكل هذه الأشياء الشاذة غير السية تختلف عما صنعه الله •

وهكذا يمكننا أن نحارب الشر دون أن نحارب الله •

فى كتاب آخر من كتبى استشهدت بقصة المسيح أمام قبر لعازر • فى رأى أن ما صنعه المسيح عند قبر لعازر يكفى لاشعال النار فى العالم • بل هو صرخة مدوية فى وسط ارتباك القرن العشرين • جاء يسوع - هذا الانسان الذى نادى بأنه الله - الى قبر لعازر • وفى اللغة اليونانية نرى بوضوح أن يسوع كانت تتنازعه عاطفتان : الأولى بكاء ودموع على لعازر والثانية انزعاج وغضب (يو ١١ : ٣٨) لقد انزعج وكان له كل الحق أن ينزعج - لشور الموت - دون أن يغضب من نفسه باعتباره الله • وهذا موقف رائع فى وسط أفكار القرن العشرين عندما أرى الشر والقسوة غير الطبيعية (التى لم يصنعها الله) يجب أن أنقل نفس انفعال يسوع • فأنا لا أبكى فقط لأجل الشر لكنى أنزعج لأجله ما دمت واعيا ان محبة الذات ليست أساس انفعالاتى • وعندى الأساس لمحاربة الشيء غير الطبيعى الذى يخالف ما خلقه الله •

يجب أن يكون المسيحى فى المقدمة ليقاوم كل ما نشأ عن قسوة الانسان لأننا نعلم يقينا أن الله لم يخلق هذه الأشياء على هذه الصورة • ويجب أن نغضب وننزعج من نتائج قسوة الانسان دون أن تغضب من الله أو من أى شيء سوى •

٤ - يمكننا أن نجد أخلاقا حقيقية أو أخلاقا مطلقة لأن الله كلى الصلاح وصلاحه مطلق باعتبار أن الشر منفصل عن الله تماما • وشخصية الله هى الأخلاق المطلقة للكون • لقد كان أفلاطون محقا عندما قال « ما لم يكن هناك مثل مطلقة فلا يمكن أن توجد أخلاق » ولقد توصلنا الى الجواب الشافى لمشكلة أفلاطون • لقد صرف وقتا طويلا ليجد مكانا يضع فيه مثله لكنه لم يتمكن من ذلك لأن الهته لم تكن كافية •

لكننا هنا أمام الاله الذات اللامحدود الذى له شخصية منزهة عن أى خطأ أو شر • فشخصيته هى المثل الأخلاقى المطلق للكون •

وليس معنى ذلك أنه يوجد مطلق أخلاقى قبل الله أو خلافه يربط الله بالانسان لأن كل ما هو أزلى هو فى النهاية الله نفسه بل ان الله نفسه وشخصيته هى الأخلاق المطلقة للكون •

وكما أسلفنا فى بحثنا فى الميتافيزيقا يجب أن نفهم أن هذه الاجابة ليست مجرد أفضل اجابة بل انها الجواب الوحيد الذى يحل مشكلة الانسان فى مجال الأخلاق • وهذه الاجابة الوحيدة فى مجال الأخلاق الحقيقية بما تتضمنه من حل لمشكلة الشر الاجتماعى مبنية على حقيقة هامة هى أن الله موجود • ان كان الله غير موجود (ليس مجرد لفظ الله بل الله نفسه اله العهدين القديم والجديد) فلا حل بالمرّة لمشكلة الشر والأخلاق • ومرة أخرى نقول لا يكفى أن يكون موجودا بل أنه غير صامت •

فهناك ضرورة فلسفية ميتافيزيقية وأخلاقية تستلزم وجوده غير صامت • لقد تكلم ناطقا مخبرا عن شخصيته •

يخطئ المبشرون هذه الأيام – دون قصد منهم – ان يشكروا الله فى صلواتهم للإعلان الذى أعلنه لنا فى المسيح • وهذا صحيح الى حد كبير بل انه لأمر عظيم أن يعلن الله لنا ذاته فى المسيح لكن قليلا ما أسمع شكرا على إعلان الله لنا بالكلمات فى الكتاب المقدس • فان الله ليس موجودا فقط لكن لا بد أنه تكلم بل لا بد أنه تكلم بصورة مختلفة فالكتاب ليس مجرد مخزن للأحاديث العاطفية المثالية • نحن نحتاج أن نعرف من هو الله وما هى شخصيته ان شخصيته هى قانون الكون • لقد عرفنا بشخصه وهذا هو مقياسنا وقانوننا الأخلاقى وهو ليس مقياسا جامدا متعسفا لأنه ثابت فى الله نفسه وهو مقياس صالح تماما لكل ما هو نسبى • فاما أن يكون مقياسنا ثابتا هكذا والا فلن تكون الأخلاق أخلاقا بل مجرد عرف اجتماعى أو مقياس تحكمية فرضها علينا المجتمع أو الدولة ولا ثالث لهما •

ويجب ألا ننسى أنه ليس خطأ أن يسأل الناس هذه الأسئلة فى

الميتافيزيقا والأخلاق بل يجب على المسيحيين أن يجيبوا بأنه لا يوجد جواب أفضل من أنه هناك إله غير صامت •

يجب ألا ننتهر الشباب والطلبة عندما يسألون هذه الأسئلة فمن حقهم أن يسألوا لكن يجب أن نوضح لهم أن اجابتنا هي الاجابة الوحيدة والا فلا اجابة •

فان كانت اجابتنا صحيحة فان الانسان ليس مجرد مخلوق صغير من الوجهة الميتافيزيقية لكنه من الوجهة الأخلاقية خاطيء مذنب ، وهو يحتاج الى حل لذلك فموت المسيح النيايى والكفارى له قيمة كبيرة اذ أنه الحل لهذه المشكلة • ويجب أن يكون موته كفاريا نياييا والا فلا معنى لموته •

فالمشكلة اذن ليست فى صغر الانسان (لأنه محدود اذ خلقه الله هكذا من البداية) بل فى حالته فهو يحتاج لحل للجرم الأخلاقى أمام الله المطلق كلى الصلاح • هذه هى حاجة الانسان الحقيقية •

وأخيرا فانا نعود فنؤكد (كما أسلفنا عند التحدث عن الميتافيزيقا) ان الحل ليس فى كلمة إله فهذا لا يجدى • فكثيرون من المعاصرين يحاولون أن يجدوا الجواب فى كلمة إله - وهذا ما يحدث بين اللاهوتيين المعاصرين وجماعة الهيبيز وبعض أفراد Jesus peoplo - لكن الحل ليس فى حروف الكلمة بل فى مضمونها أى فى الإله الذى أخبرنا عن ذاته كالإله الأزلى غير المحدود الذات والثالث الحقيقى •

وفى مجال الأخلاق لا نجد حلا الا على أساس سقوط الانسان التاريخى فى وقت معين • عاش الانسان وقتا قبل السقوط ثم تحول الانسان عن نقطة تكامله باختياره فلم يستمر على حالة وتحول الى انسان غير سوى • حاول أن تستغنى عن هذه الأفكار وستجد أن الجواب المسيحى فى مجال الأخلاق أصبح بلا قيمة •

كثيرا ما نرى بعض المسيحيين يتلاعبون بالجـزء الأول من التكوين • لكنك اذا حذفتم حقيقة تاريخية - هى سقوط الانسان فى وقت معين ومكان محدد - فان الاجابات تنذهب هباء منثورا وليس الضرر قاصرا على مجرد الشك فى الحقائق التاريخية كما نراها فى سلسلة التاريخ البشرى لكن كل اجابة نعرفها فى مجال الأخلاق ومشكلة الانسان ستبخر ايضا •

الفصل الثالث

الحاجة الى نظرية المعرفة

المشكلة

تبحث نظرية المعرفة فى طرق المعرفة أو أسس المعرفة • فموضوع بحثها هو : كيف نعرف ؟ أو كيف نعرف أننا نعرف ؟

ونظرية المعرفة تمثل المشكلة المركزية لعصرنا الحالى • فما نطلق عليه صراع الأجيال هو فى الحقيقة صراع بين جيلين فى المعرفة فالجيل الجديد ينظر الى المعرفة من زاوية تختلف تماما عن الزاوية التى ينظر منها الجيل السابق • ولقد تعرضت لهذه المشكلة فى كتابين من كتبى ★ لذلك فلنأعود للتعلم فى بحث هذا الموضوع هنا بل سأكتفى بأن أخص ما ذكرته عن توما الاكوينى والمشكلة التى نشأت عن فروضه ونظامه الفكرى • لكننا يجب أن نبدأ الموضوع من قبل توما الاكوينى ، فنبدأ بالفلاسفة اليونانيين العظام •

فلقد قضى الفلاسفة اليونانيون وقتا طويلا يناقشون نظرية المعرفة • ولعل أهم فليسوف تعرض لهذه المشكلة وجاهد فى حلها بحساسية تامة هو أفلاطون • فقد وعى المشكلة الأساسية وهى انه فى مجال المعرفة (كما فى مجال الأخلاق) لا بد من وجود ما هو أكثر من الجزئيات ان كان هناك معنى • وفى مجال المعرفة نجد جزئيات نصفها بأنها مقدرات فى العالم • وفى أى لحظة أستطيع أن أرى الوفا بل ملايين من هذه الجزئيات فى لحظة خاطفة • لكن ما هى الكليات التى تعطى لهذه الجزئيات معنى ؟ هذا هو لب المشكلة فى نظرية المعرفة •

وتوجد مشكلة أخرى تتعلق بها ألا وهى الطريقة التى نتعلم بها • فمثلا ان تكلمنا عن التفاح يمكننا أن نعدد أنواعا منه تصل الى مئتين

* Escape from reason , The god who is there

أو ثلاث منه أما في واقعنا العملي فنحن نضع كل هذه الأنواع تحت كلمة واحدة هي تفاح وبذلك نفهم ما نتكلم عنه أو ما نراه بطريقة أوضح • فنحن نترك الجزئيات ونكتفى بالعموميات • ونفرض الأسلوب • نستخدمه في العلوم • فالعلم ينظر إلى الجزئيات والخصائص ويحاول أن يضع القوانين التي تجمع هذه الجزئيات حتى ندرك العلاقات وحتى يمكننا أن نستوعب بطريقة أوضح • والقوانين العامة (مثل الكهرومغناطيسية أو الجاذبية) ما هي إلا قوانين وصلت إلى درجة من التعميم حتى أنها تختصر كل الجزئيات في العالم المادي إلى عدد قليل من الكليات على قدر الامكان • إذ سواء كنا نتكلم عن التفاح أو عن العلم ففي عملية التعلم ننتقل دائماً من الجزئيات إلى الكليات •

هذه الأفكار ليست مجرد قواعد بل هي الطريق إلى المعرفة • إنها ليست مجرد نظريات مجردة أو مجرد دراسة منهجية بل هي في الحقيقة دراسة للمعرفة ولعرفة أننا نعترف بالفلاسفة اليونانيون - وخصوصاً أفلاطون - كانوا يبحثون عن الكليات التي تعطي للجزئيات معنى •

ونستطيع الآن تطبيق هذه الفكرة في مجال الأخلاق وفهمها ببساطة • ففي الفصل السابق قلنا أننا في حاجة إلى كليات - في مجال الأخلاق - أن كنا نريد أن نحكم على الصواب والخطأ • أما إذا لم تكن لنا كليات فإن أحكامنا الخلقية تصبح مجرد أحكام اجتماعية يمكن الوصول إليها باستطلاع الرأي العام عن رأيه في الصواب والخطأ • والأغلبية العددية في هذه الحالة تحدد الحكم الأخلاقي • أو قد نلجأ لنتيجة ممتازة مختارة نستطلعها الرأي فيما هو صواب أو خطأ • إننا في حاجة إلى شيء كلي عام يغطي كل الجزئيات •

وإذا عرفنا قيمة الكليات في مجال الأخلاق فنحن في شدة الحاجة إلى تلك الكليات في مجال المعرفة •

كيف نتوصل إلى الكليات العامة التي نستطيع أن تحتوى كل الجزئيات حتى أننا نعرف ؟

لجأ أفلاطون إلى مفهوم المثل الذي يعطي هذه العمومية الكلية •

ولشرح هذه الفكرة نأخذ مثلاً عن الكراسى • دعونا نتصور كرسيًا مثاليًا موجودًا في مكان ما • وإن هذا الكرسي له خواص تشمل كل خواص الكراسى الأخرى في أى مكان • لذلك فإن أى كرسي يشبه الكرسي المثالى نطلق عليه لفظة كرسي بالنسبة للمثال لا الى الجزئيات • فعندما ننطق اللفظ كرسي فأننا نتصور معنى عاما أكثر من مجرد مجموعة الخواص الجزئية للكرسي •

هذا هو الحل الذى أوجده أفلاطون • مثل فى مكان ما يشتمل على كل الجزئيات الممكنة فى أى كرسي فى أى مكان • ولا يمكن أن يوجد كرسي خلاف هذا الكرسي العام أو خلاف مفهومنا عن الكرسي المثالى ، وكل ما يخالف هذا المثال ليس بكرسي •

ومن دراستنا لما يشابه مجال الأخلاق نستطيع أن نفهم مشكلة المعرفة أو مشكلة التأكد من المعرفة • فكر اليونانيون فى طريقتين للإجابة : الأول كان فى معنى كلمة مدينة Polis • فهذه الكلمة تعنى ببساطة مدينة لكنها فى الفكر اليونانى كانت تعنى معنى أعمق من مجرد المعنى الجغرافى • فهى مفهوم يتعلق بتركيب المجتمع • اعتقد بعض اليونانيين ان كلمة Polis بمعنى المجتمع تعطى المعنى الكلى • لكن سرعان ما اكتشف اليونانيون بحكمتهم أن هذا المعنى لم يكن كافيا • لأنه فى ضوء هذا المفهوم يصبح المواطن على صواب ان وافق ٥١٪ من السكان على رأيه أو اتفق رأيه مع رأى الصفوة من الناس • ثم اتجهوا الى رأى أفلاطون عن الملك الفيلسوف ★ لكن حتى هذا الرأى كان محدودا • فحتى لو اختاروا الملك الفيلسوف فى المدينة وفى المدن الأخرى فإن ذلك لن يؤدى الى الشمول والكلية التى تشمل كل الجزئيات

لذلك كانت الخطوة التالية هى الاتجاه الى الآلهة باعتبار ان الآلهة يستطيعون توفير كليات أكثر من المدينة • لكن المشكلة ان آلهة اليونان (بما فى ذلك الآلهة التى تصورهما أفلاطون) آلهة ناقصة ليست فيها

★ نادى أفلاطون فى جمهوريته بنظام طبقى وضع على رأسه الفلاسفة • لذلك جعل الملك فيلسوفا •

(العرب)

الكفاية ، فهي آلهة شخصية بالمقارنة بآلهة الشرق (التي شملت كل شيء لكنها لم تكن شخصية) وبالتالي بقيت المشكلة لم تحل في نظر اليونانيين . وكما أن لفظ Polis بمعنى أن المجتمع لم يحل المشكلة لأنه لم يكن كبيراً . كبرا كافياً كذلك عجزت الآلهة عن الحل لأنها أيضاً لم تكن كبيرة . فقد كانت آلهتهم يحارب بعضهم البعض وكانوا يختلفون في كل شيء جميل . وحتى لو وضعنا كل تلك الآلهة معا فإن ذلك لم يكن كافياً (كما رأينا في الفصل السابق) في موضوع القدر . فهل كان القدر يتحكم في الآلهة أم كانت الآلهة تتحكم في القدر ؟ وهل كانت الأقدار هي الوسيلة التي تستخدمها الآلهة في تصرفاتهم أم أن الأقدار هي الكليات خلف تلك الآلهة ، وهي التي تتلاعب بهم وتؤثر فيهم ؟

وهذا يوضح لنا فهم اليونانيين العميق لآلهتهم باعتبار أنها آلهة ليس فيها الكفاية . فهي آلهة قاصرة بالنسبة لموضوع القدر كما أنها قاصرة بالنسبة للمعرفة . فمع أن أفلاطون وغيره من اليونانيين أدركوا أهمية الكليات وعرفوا أنه بدونها لا وجود للصواب لكنهم لم يتوصلوا لمصدر تلك الكليات سواء عن طريق مفهوم المدنية أو الآلهة .

ولقد أدرك توما الاكويني هذه المشكلة عند الفلاسفة اليونانيين . وقبل توما الاكويني عاش البيزنطيون الذين لم يهتموا بالجزئيات فقد عاشوا بينها لكن بفكر يختلف تماما عن فكر اليونانيين . فلم يكن لهم أي اهتمامات بالطبيعة أو بالجزئيات . ولنا أن نشكر توما الاكويني لأجل نظريته التي أعادت للطبيعة أهميتها في نظر الانسان .

وعندما بدأ اهتمام توما الاكويني بالطبيعة ينتشر (كما أشرت الى ذلك في كتاب *Escape form reason* بدأ الفنانون يتأثرون به . فقد بدأ الفنان Clmehue (١٢٤٠ - ١٣٠٢) يرسم بطريقة مختلفة . وكذلك دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) بدأ يكتب بطريقة مختلفة . وقد كان للطبيعة تأثيرها على أعمالهما . ولكن بدأ الصراع بين الطبيعة والنعمة ★ *Nature and grac* ففي الطبيعة تجد الناس

★ ليس المقصود بالنعمة هنا المعنى اللاهوتي المعروف أي محبة الله التي لا نستحقها لكن يقصد بها المؤلف نقيضا للطبيعة الملموسة . فالنعمة تشمل السماويات والأشياء غير المحسوسة التي تؤثر في الأرضيات . (العرب)

كما تجد قانون العلة والتأثير يسود العالم • أما فى النعمة فتجد القوى
الالهية وكيف تؤثر فى العالم • فى الطبيعة نرى الجسم وفى النعمة نرى
الروح • لكننا نعود دائما لمشكلة الجزئيات والكليات لذلك نقول اننا
نجد فى الطبيعة الجزئيات أما فى النعمة فنجد الكليات ★ • فالفنانون
الذين ذكرناهم أمثال سيمابو ودانتى وجيوتو (١٢٦٧ - ١٣٣٧) ومن
تبعهم بدأوا يركزون على الطبيعة • وقد كان هذا مفيدا كما ذكرنا الا
أنهم أوجدوا مشكلة • فقد أوجدوا أفكارا طيبة عندما أعادوا فكرة
الطبيعة وأكدوها فى أفكار الناس الا أنهم أوجدوا أفكارا خاطئة لأنهم
جعلوا الجزئيات قائمة بذاتها وبذلك فقدوا فكرة الكليات التى تعطى
الجزئيات معنى •

وكما أوضحت فى كتبى السابقة فاننا نلاحظ أنه اذا اعتبرنا
الطبيعة أو الجزئيات قائمة بذاتها - دون الله - فان الطبيعة تطفى على
النعمة • أو يمكن أن نقول ان كل ما يبقى لنا من ذلك هو جزئيات لا
كليات لأن الكليات تختفى ليس فى مجال الأخلاق فقط (مع أن هذا
سبب جدا) بل فى مجال المعرفة أيضا • وهنا نجد الاتجاه الى الانسان
المعاصر الذى لا يبالى بالقيم الأخلاقية • فهذه بداية هذا الاتجاه •
فهناك مجموعة كبيرة من الجزئيات لكن لا طريق لجمعها معا لذلك نجد
الطبيعة تنتصر على النعمة فى مجال الاخلاق وبصفة أخرى فى مجال
المعرفة •

ومن هنا نرى أهمية ليوناردو دافنشى • فقد كان أول رياضى معاصر
فهم هذه المشكلة • وأنا أقرر ذلك لأننى أستقرئ فى آرائه مشكلة جيلنا
المعاصر الذى لا يبالى بالقيم الأخلاقية بل لأنه فهم المشكلة فهما حقيقيا •
لقد عرف - عبر مئات من السنين التى تفصل بينه وبين الانسان
المعاصر - ما هى نهاية الانسان العقلانى اذا فشل فى الوصول الى حل •
وهذه هى العبقرية بعينها أن تتفهم أشياء سابقة للعصر • وهذا ما عرفه
ليوناردو دافنشى عندما قال انه اذا بدأنا بالعقلانية فقط (أى اذا بدأ

★ النعمة هنا تمثل الكليات فهل تناظر عالم المثل عند أفلاطون •
فهى تشمل كل ما هو علوى كخالق والأنوار السماوية غير المنظورة •
أما الطبيعة فهى تشمل كل ما هو مخلوق كالارض والأرضيات وما يفعله
الانسان على الأرض • والجسد الانسانى

الانسان بنفسه دون أى معرفة خارجية (فانه يصل الى تراكيب رياضية
وجزئيات وينتهى الى حالة ميكانيكية فقط . وهكذا نرى أنه قد سبق
عصره عندما رأى ان كل شيء سينتهى الى الآلة . ولن توجد الكليات
وسيزول المعنى بل ستلغى الكليات من حياتنا . وهكذا صار فكر
ليوناردو مقاريا تماما لفكر الانسان المعاصر .

وقد نادى ليوناردو بأن الفن يجب أن يرسم الكليات وهو معنى
قريب جدا للمفهوم الحديث عن اختبار الأشياء العلوية . وقد بدأ يرسم
ويرسم محاولا رسم الكليات . ولقد حاول هذه المحاولة بنفس فكر
أفلاطون الذى قال اننا اذا كنا نريد حقا أن نصل الى معلومات عن
الكراسى فلا بد من وجود كرسى مثالى وفى مكان ما يجمع فى صفاته كل
أنواع الكراسى . ولقد نادى ليوناردو وهو من أتباع مذهب الافلاطونية
الحديثة قائلا « ليتجه الانسان الى انتاج الكليات » ولكن من هو هذا
الانسان ؟ هل هو عالم الرياضيات ؟ لا ، بل الفنان الرسام ذو الحس
المرهف . وهكذا نجد ليوناردو شخصية هامة فى مجال المعرفة
الانسانية . وهذا ما أشرت اليه فى كتابى *Escape from reason* عندما
قررت بين العلم الحديث والجديد من العلم الحديث .

وفى كتابى السابقة أشرت أيضا الى هويتهيد Whitehead
وأوبنهايمر Oppenheimer ، هما اثنان من العلماء ومع أنهما غير
مسيحيين بالمعنى الحقيقى الا أنهما قررا ان العلم الحديث لم ينشأ الا
لترعرعه فى الجو المسيحى .

وأرجو أن تحتملونى عندما أكرر هذا لأنى أريد أن أتقدم خطوة
أخرى فى مجال المعرفة . وكما يشير هويتهيد فى عبارة رشيقة : ان
هؤلاء الناس جميعا آمنوا بأن الكون صنع بواسطة اله حكيم لذلك يمكن
الوصول الى أسرار الكون بالعقل ، هذا هو الأساس الذى بنى عليه
العلم الحديث . فالعلم الحديث هو العلم الأصيل الذى آمن العاملون فى
مجاله بتناسق العلل الطبيعية فى نظام محدد هذا النظام الذى يمكن لله
والانسان المخلوق على صورته أن يعيدوا تنظيمه . هذا هو نظام العلة
والمعلول فى مرحلة زمنية محدودة .

ومنذ عصر نيوتن (ولا أقصد نيوتن نفسه بل أتباعه) بدأ مفهوم

الآلة وساد هذا المفهوم حتى لم نعد نجد سوى الآلة • وعندما ننتقل الى الجديد فى العلم الحديث نجد انتظام العلل الطبيعية فى نظام مغلق بما فى ذلك علم الاجتماع وعلم النفس • فالانسان أصبح متضمنا فى الآلة • هذا هو العالم الذى نعيش فيه • فى عصر العلم الان لم يعد الناس قادرين على التأكد من أن الكون منطقى ومعقول لأنه مخلوق بواسطة اله عاقل حكيم • وهذا يثير التساؤل الذى وعاه ليوناردو دافنشى كما فهمه اليونانيون من قبله كي فيعرف رجل العلم ؟ وعلى أى أساس يعرف أن ما يعرفه يعرفه فعلا ؟

وهكذا وضع العقليون مفهوم « الوضعية » فى مجال المعرفة • والوضعية نظرية فى فلسفة المعرفة تفترض أننا نستطيع معرفة الحقائق والأشياء بطريقة موضوعية بحتة • والعلم الحديث مبنى على هذه الفكرة •

انه مفهوم مثالى حقا جعل الانسان العقلانى يحس بكثير من من الكبرياء كما يحس بأن قامته قد طالت عشرة أقدام • هذا المفهوم يفترض أن الانسان - المحدود بفكره المحدود - دون أن يبدأ بأى كليات - يستطيع أن يصل الى معلومات حقيقية كافية وأن يصل الى الكليات من الجزئيات •

أحد القادة فى هذا الميدان هو جان جاك روسو فقد غير قانون « الطبيعة والنعمة » الى « الطبيعة والحرية » - الحرية المطلقة • فقد رأى روسو والناس الذين حوله أن كل شيء قد تحول الى آلة فى مجال الطبيعة • فقالوا بأن الشيء العلوى هو الحرية المطلقة • وفى ضوء هذا المفهوم - الحرية المطلقة باعتبارها المثل الأعلى - لم يعد الاعلان Pevelation هو الذى يحد الانسان لا ولا المجتمع أو المدينة Polis

هذا المفهوم - مفهوم الحرية الشخصية - يرى بوضوح فى رسوم جوجين gaugin فقد تخلص من كل القيود ليس فقط قيود الله بل حتى قيود المدينة التى كانت تبدو - حسب رأيه - صغيرة جدا نظرا للتقدم الهائل فى الحضارة الفرنسية • ولقد ترك جوجين فرنسا وذهب الى تاهيتى ليتخلص من قيود الحضارة (المدينة) حتى يختبر

مفهوم الانسان البدائي غير المتحضر وهو المفهوم الذى نادى به روسو ،
فالتخلص من القيود يعنى التخلص من قيود المدينة ثم من قيود الله
ـ أو الآلهة ـ وهذا يعنى الحرية .

ويا لتعاسته المتوقعة ، فلم تسر الأمور على ما توقع .

إذا فإن ما نصل اليه فى النهاية ليس مجرد حرية مفسدة مخزية.
فى مجال الأخلاق فقط (ولو أنها تظهر بسرعة فى هذا المجال خصوصاً
فى فوضى الحياة الجنسية) بل فى مجال المعرفة أيضاً .

ورغم أنه من المفروض أن نتمتع بالحرية المطلقة فى مجال
الدراسة فيما وراء الطبيعة كما فى مجال الأخلاق لكن المشكلة هى :
كيف تعرف ؟ وكيف تعرف أنك تعرف ؟

...

ولنا أن نتصور اليونانيين ، وليوناردو دافنشى وكل أتباع
الافلاطونية الحديثة فى عصر النهضة وقد جاءوا الى روسو وأتباعه.
ليسألوهم : « ألا ترى ما فعلت ؟ أين الكليات ؟ كيف ستعرف ؟ كيف
ستبنى كليات تكفى لاستمرار المجتمع من تلك الجزئيات ؟ كيف تبني
معرفة حقيقية ، معرفة تتحقق منها وتتأكد من معرفتها ؟ » .

إنها فى الواقع خطوة فقط ما بين أناس مثل جوجن وبين الهيبيز
بل وبين كل الحضارة الانسانية الحديثة . فمن وجهة معينة نضع بين
قوسين فى مسار الزمن العصر من روسو حتى بداية حركة الهيبيز ، بل
والحضارة المعاصرة المبينة على عدم وجود كليات أو عموميات فى أى
مكان ، ان الانسان مخلوق للذة والمتعة والحرية فقط . هذه الحرية
فى المتعة واللذة ليست فى مجال الأخلاق فقط بل فى مجال المعرفة
أيضاً . ونستطيع أن نرى بوضوح وسهولة الارتباك الاخلاقى الذى
نشأ عن ذلك لكن الارتباك المعرفى أسوأ . فإن لم تكن هناك كليات
فكيف نفرق بين الحقيقة واللاحقيقة ؟ وعند هذه النقطة نجد أنفسنا فى
حضن مشكلة الانسان المعاصر كما سأبين فيما بعد .

...

لنتقدم الان الى الفترة التالية لروسو . ويرجع الفضل فى هذه

الفترة الى عمانوئيل كانت هيجل فى تغيير مفاهيم علم المعرفة . فقد كان الناس قبلهم بطريقة ضد الشيء . كأن تقول ان «س» ليست «لا س» وهذه هى الخطوة الأولى فى المنطق الكلاسيكى . وبمعنى آخر قاننا نقول ان كان هذا الشيء صحيحا فنقيض هذا الشيء ليس صحيحا . هذا هو الطريق الكلاسيكى للمعرفة . لكن هيجل قال بأن النقيض لا يتمشى مع الفكر لذلك اقترح أسلوبا مغايرا للوصول الى المعرفة . فبدلا من استعمال النقيض نادى بالتعامل مع المركب Sgothesis وهكذا أوجد مثلثة المشهور . فكل شيء مكون من موضوع يقابله نقيض الموضوع والجواب دائما هو المركب ولقد حدث تغيير جذرى فى كل العالم فى مجال الأخلاق وفى العلوم السياسية كما حدث تغيير أقل وضوحا فى مجال المعرفة . لقد غير هيجل كل النظرية عن كيفية المعرفة .

وانتقل بعد ذلك سريعا الى كيركجارد الذى طور هذه الأفكار . وأضاف اليها خطوات أخرى تناقش الثنائية المجردة بين الفكر والافكر . فكيركجارد ومدرسته من بعده يقولون بأن كل ما له معنى منفصل دائما عن الفكر . فالفكر يقود الى الأشياء السفلية كالمعرفة الرياضية بلامعنى ، أما المعرفة العلوية فانها نرجو أن يصل من خلالها الى المعنى اللامعقول . للجزئيات .

كل هذه المناقشات ترجع أساسا الى أربعة رجال ناقشوا نظرية المعرفة هم روسو - كانت هيجل - كيركجارد . ومن بعد هيجل استبدل الناس فكرة النقيض بفكرة المركب وهكذا انقلبت نظرية المعرفة من أساسها . واليوم نجد للوجودية أقطابا ثلاثة هم : جان بول سارتر الفرنسى ، وهيدجار الألمانى وكارل ياسبرز وهو الألمانى عاش فى سويسرا ولو أننا نستطيع التمييز بين القوالب الفكرية للوجودية الا أنها كلها ترجع الى نفس الفكرة . فكل من هؤلاء الفلاسفة يعبر عن الوجودية بصورة مختلفة لكنهم كلهم متفقون على أن الفكر المجرد يقود الى شيء . فظيع فى مختلف المجالات - بما فى ذلك مجال المعرفة . بل اننا نضيف . وفى مقدمتها المعرفة . وفى رأى هؤلاء المفكرين أن المعرفة التى نصل اليها بفكرنا هى النظريات والقوانين الرياضية التى تجعل الانسان مجرد آلة . لكنهم يأملون ان يصلوا الى نوع من الاختبار الصوفى العلوى الغامض يختلف عن الفكر المجرد ويؤدى الى الكليات .

وهنا نحس مرة أخرى بتيار حركة الهيبيز والاتجاه الى حضارة المخدرات • فالانسان يحاول جاهدا أن يجد الحل داخل رأسه لأنه غير متأكد من وجود شيء ما خارجه • وما ما توصلنا اليه • وأنا متأكد أن الفجوة بين الأجيال ترجع أصلا الى مجال المعرفة • فقديما كان الانسان يتمتع بأمل خيالي أنه يستطيع بفكرة أن يجد معنى لحياته وأن يجعل الكليات تسود على الجزئيات • ولكن جاء روسو وكانت وهيكل وكيركجارد وتلاشي هذا الأمل • وشبابنا اليوم يعيشون في عصر لم يعد يؤمن بالرجاء في الوصول الى الحقيقة • لهذا أنا أستخدم تعبيراً خاصاً : الحق الحقيقي True Truth لأنبر على هذا الحق • وهذا ليس مجرد حشو أو تكرار لا معنى له في الكلام بل أنا أعني أن كلمة الحق الآن تعني معنى لم يكن موجوداً قبل هؤلاء المفكرين الأربعة • بل انهم لا يعتبرونه حقاً على الإطلاق • لذلك صغت هذا التعبير لأصل الى المعنى • لكن من الصعب أن نحدثه حتى يتفهم الناس عمق المشكلة •

وبعد كيركجارد نجد أن الفكر أو العقلانية تقود الى التشاؤم فقد عرف الحقائق الرياضية لكن يبقى الانسان مجرد آلة • وأي اتجاه يقود الى التفاؤل يصل اليه الانسان في مجال اللامعقول - أو الأمور العلوية • لذلك فإن الفكر - بما في ذلك العلم الحديث - سيقودنا حتماً الى التشاؤم فالانسان مجرد آلة ، والانسان مجرد صفر ، ولا معنى لأي شيء • فأنا لا شيء ، مجرد جزئىء بين آلاف الجزئيات • والجزئيات ليس لها معنى وخصوصاً الانسان وعلى وجه اخص أنا كجزئىء • أنا بلا معنى • فأنا أموت • ولقد مات الانسان •

يتساءل الطلاب باستغراب : لماذا يعاملون وكأنهم كارتات مثقبة تستخدم لتغذية الآلات الحاسبة ؟ هذا هو السبب •

لذلك يقفز الانسان الى الأمور العلوية ، الى كل انواع الغموض هي مجال المعرفة • •

فالانسان غامض لأنه منفصل تماماً عن الفكر والعقل وهذا الغموض يختلف تماماً عن كل ما سبقه من غموض • فالصوفيون والباطنيون افترضوا وجود شيء • أما بالنسبة للانسان المعاصر

فالغموض الانساني مجرد تصوف لفظي يتعامل مع الألفاظ اللغوية التي لا ترتبط بأي شيء خارجي بل بأشياء في رأس الانسان ، أو في اللغة بصورة أخرى . ولم تنتشر المخدرات في العصر الحديث الا كوسيلة لايجاد معنى للحياة في رأس الانسان .

والحالة الحاضرة يمكن تلخيصها في مجالين
(١) الوضعية العقلية Rational Positivism وهي تعنى بالبحث عن الحقيقة العلمية التي تقود الى القانون الرياضي وبذلك يصبح الانسان آلة .

(٢) دائرة اللامعقول حيث نجد كل أنواع الغموض اللامعقول . ولنعد ثانية الى الوضعية (وهي التي تبحث في الأمور السفلية بالمقارنة بالأمور العلوية) لقد كانت أمل الانسان المفكر لكنها ماتت تدريجيا .

أذكر عندما بدأت ألقى محاضرات في جامعتي أكسفورد وكامبردج أنني كنت أغير طريقتي في كل منهما . لأنه بينما كانت جامعة أكسفورد تدرس المنطق الوضعي كانت جامعة كامبردج تدرس التحليل اللغوي (٢) أما الآن فان التحليل اللغوي هو السائد في كل جامعات العالم وماتت الوضعية تدريجيا . واني أنصح من يريد التعمق في بحث أسباب انتهاء هذه الفلسفة أن يقرأ كتاب ميخائيل بولاني (٣) . ولو أن اسم هذا الكاتب غير مشهور لكنه أحد الكتاب الرموقين في مجال الفكر . وكتابه المشار اليه يبين لماذا ماتت الفلسفة الوضعية لأنها فلسفة غير كافية في مجال المعرفة . إذ أن العلم الحديث في محاولاته للوصول الى

(١) الفلسفة الوضعية : (وصاحب مدرسته أوجست كونت) تعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب مهمة كل تفكير تجريدي (العرب)

(٢) مع ازدياد دور الدراسات النظرية في العصر الحديث ظهر اتجاه لدراسة المحتوى المنطقي للغة خصوصا ما تحتويه من رموز في العلوم الطبيعية والرياضية (وقد اتجهت الوضعية الحديثة الى اختزال المشكلات الفلسفية الى مجرد تحليل منطقي للغة

(العرب)

(3) Michael Polanyi , Personal Knowledge

An Introduction to Post Critical Philosophy

معلومات معينة بآء بالفشل • والآن لا توجد غالبآ ولا جامعة تدرس الفلسفة الوضعية فى الدراسات العليا . لكنها تدرس فقط للسنوات الأولى فى الجامعة لشرح الأساسيات فى أذهان الطلبة - ولو أن حتى هذا الأساس لم يعد موجودا •

والآن دعونا نحلل ما وصلنا إليه • يقول هويتهيد أن العلماء الأوائل أمثال كوبرنيكوس وجاليليو حتى عصر نيوتن ثم فاراداي كانت لهم الشجاعة الكافية لوضع أسس العلم الحديث لأنهم كانوا يؤمنون أن الله الذات الحكيم خلق العالم • لذلك تمكنوا من الوصول إلى الحقائق العلمية عن طريق العقل • لكن عندما نأتى إلى العلوم الطبيعية فإننا نهدم كل البناء ونضع الفلسفة الوضعية بدلا منه • أما الآن فحتى هذه الفلسفة قد انقرضت •

وبولانى يقول أن الوضعية غير كافية لأنها لا تضع فى اعتبارها شخصية العالم الباحث نفسه • بل أنها تتصرف كما لو أنه يمكن الاستغناء عن هذا العالم - مع أنه يعرف أشياء معينة معرفة كاملة • أو كما لو كان هذا العالم يعرف دون أن يكون موجودا • أو يمكن أن نقول أن الوضعية لا تأخذ فى اعتبارها نظريات العالم وافتراضاته باعتبارها خلفية تغذى معلوماته •

وهنا المأساة التى يوضحها لنا بولانى • لأن هذا الكلام غير صحيح • فلا يوجد عالم فى الفلسفة الوضعية لا تتأثر معلوماته بخلفية معينة سواء أكانت نظرية أو رأى عالمى يرى من خلاله • أما مفهوم الشخص الذى يلاحظ دون تحيز أو أى تأثير فهو مفهوم خيالى • ولا وجود للعلم إذا لم يوجد الشخص الذى يشاهد ويلاحظ •

لما كنت شابا كنت أسمع الناس من حولى يقولون أن العلم موضوعى بحت • ولكن ظهر اتجاه فى جاسعة أكسفورد منذ بضع سنين يقول بأن هذا غير صحيح • فلا يوجد علم بدون عالم يشاهد ويلاحظ • هذا المشاهد يقوم بالتجربة ثم يلاحظ نتائج التجربة ويدون ملاحظاته ونتائجه حتى يصل إلى النتيجة • وبولانى يؤكد أن هذا المشاهد لا يمكن أن يكون محايدا لأنه لا بد أن يتأثر بخلفية معينة ولا بد من وجود افتراضات معينة فى رأسه تؤثر على النتائج التى يصل إليها •

دعوني أتقدم خطوة أخرى فأقول بأن الفلسفة الوضعية تواجه مشكلة أساسية . فالإنسان يحكم على نظام ما من خلال التركيب العام الذى يوجد فيه . ولا يمكن أن نخلط النظم والا فلن نصل الى أى فكر حقيقى . أما فى ضوء الفلسفة الوضعية كتركيب عام فلا وسيلة للتأكد من أن أى شيء موجود . بل أنك - فى ضوء هذه الفلسفة - تبدأ مجردا من أى شيء وكأن لا شيء موجود . فالفروض لا وجود لها . وكل ما يصلك من معطيات مشكوك فيها . بل ان هذا النظام الفكرى (الوضعى) لا يقدم لك أى شيء عام - خارجك - تثق أنه يعطيك فروضا حقيقية يعتمد عليها . بل أنك تشك فى وجود أى شيء ، حتى اذا وصلت الى بداية الأشياء فانك لا تستطيع أن تفرق بين الحقيقة والخيال .

وهناك مشكلة أخرى . فالذى يؤمن بالوضعية لا يمكنه أن يتأكد من وجود أى شيء . بل حتى لو افترض وجود شيء فلا يوجد ما يثبت له أن هذا الشيء حقيقى أو حتى قريب من الحقيقة . بل انه من خلال هذه الفلسفة لا يمكن اثبات وجود أى علاقة بين المشاهد وموضوع المشاهدة .

وعندما نصل الى الآراء الحديثة فاننا نجد مفكرا معاصرا معروفا هو كارل بوبر Karl Popper يقول بأن الشيء بلا معنى ما لم يتعرض للتحقيق أو اثبات الزيف . ولكن فى كتاب حديث له تراجع خطوة للوراء فقال لا وسيلة للتحقق من الصدق . فلا يمكنك اثبات صدق شيء لكن يمكنك فقط اثبات الزيف . بمعنى أنه لا يمكنك أن تقول ما هو الشيء لكأنك تستطيع أن تقول ما ليس فى هذا الشيء . عندما حطم بولانى الوضعية بأسلوبه الرائع وصل الى حالة من الشك المطلق فى مجال المعرفة . وهذا نفس المصير الذى وصل اليه كارل بوبر فى كتابه الأخير وفى العلم نجد نفس المشكلة لكننا نجد ما نسميه المفهوم النموذجى . فالإنسان يجد أن الحقيقة الموضوعية غير واضحة وكل ما يتبقى للإنسان هو هذا المفهوم النموذجى فى رأس العالم .

وصلنا الى أن الفلسفة الوضعية ماتت وانتهت وحل محلها التحليل اللغوى Linguistic analysis ولم تترك لنا الوضعية أى نوع من المعرفة بل تركت لنا مجموعة من المتوسطات الاحصائية والتقريب

بدون أى تأكيد أن أى شيء كان موجودا أو أن أى شيء سيستمر .
ويمكن أن نستشهد على ذلك بأقوال الفريد كورزيبسكى
Korzybski ودكتور دافيد بورلاند David Baurland اللذين كتب
كتاب « علم دلالات الألفاظ » General Semantics
ولم يسمحا باستخدام أفعال الكينونة Verb to be وكتب كل كتبهما
دون استخدام هذه الأفعال . لماذا ؟ لأنهما يقولان انه لا يمكن التأكد من
الاستمرار . ما أشبه ذلك فى رأى بتيار الفكر النفسى عن الوعى
Consciousness الذى يصل بنا الى اننا غير متأكدين من
وجود « أنا » .

ثم أريد أن أتحوّل الى الفيلسوف لدفنچ فتجنشتين Ludwig
Wittgenstein الذى يعتبر المفتاح الحقيقى لهذا الموضوع . كتب
هذا الفيلسوف كتابا أسماه Tractatus قبل أن يتحوّل الى فلسفة
التحليل اللغوى أخيرا . قال ان فى هذا العالم فى مجال الفكر حقائق
واقتراضات العلوم الطبيعية . وهذا كل ما يمكن أن يذكر أو ما يمكن
التعبير عنه لفظيا . بل ان هذه هى حدود اللغة والمنطق . ففي العالم
السفلى يمكن أن نتكلم لكن كل ما يمكن أن نطق به عبارة عن
فروض رياضية للعلوم الطبيعية . فاللغة مرتبطة بالعالم السفلى للفكر
وتنتهى بالقوانين الرياضية . لكن برتراند Bertrand Russel
يؤكد أن فتجنشتين كان رجلا غامضا . فقد تصور فى العالم العلوى
الصمت . . . لأنك ما أن تخرج خارج حدود العلوم الطبيعية حتى لا تجد
ما تنطق به . ومع أن الانسان فى حاجة ماسة الى قيم وأخلاق ومعانى
لكل شيء ولكن لا يوجد الا الصمت . وهذا ما دفعنى لاختيار اسم هذا
الكتاب « اله غير صامت » ردا على كتاب فتجنشتين « الصمت » فقد
أوحى لى هذه الكلمة بعنوان هذا الكتاب . يقول فتجنشتين انه فى مجال
ما يحتاجه الانسان بشدة من قيم وأخلاق ومعانى لا وجود الا للصمت .
والانسان يعرف قيمة هذه الأشياء ويقاوم لكنه لا يستطيع حتى أن يتكلم
عنها أو يفكر فيها . فالقيم والأخلاق والمعانى فى الأماكن العلوية فقط دون
اعتبار الى مقدار حاجتنا اليها وهناك لا وجود الا للصمت .

واستطرد فتجنشتين من ذلك الى التحليل اللغوى وهى الفلسفة
السائدة الآن فى العالم كله . هذه الفلسفة التى نشأت نتيجة للفراغ

الذى أعقب فشل الفلسفة الوضعية • ولا ننسى أن فلسفة فتجنشتين (فى أول حياته) والفلسفة الوجودية متشابهتان جدا فى موضوع الصمت • ولو أنك انتقلت من انجلترا الى أوربا فى دراستك للفلسفة فستجد الناس يظنون أنهما مختلفتان جدا • لكن نقطة التشابه الحقيقية بين الفلسفتين هى قول فتجنشتين أنه لا وجود للقيم الحقيقية أو المعانى فى كل هذه الأشياء بل لا شيء الا الصمت • والذين شاهدوا الفيلم الذى قدمه برجمان « الصمت » يحسون بأن هذه الأفكار مألوفة لهم تماما • فقد كان برجمان فيلسوفا عندما توصل الى الفكرة القائلة بأنه لا يوجد شيء يمكن التحدث عنه فى هذا المستوى العلوى • وان الله - كما يعرفه الوجوديون - بلا معنى • وهذا هو ملخص فكرة فيلم الصمت • أى أن برمجان التقى مع الفيلسوف اللامع فتجنشتين فيما قال قبله بسنين عديدة • ويعتبر فيلم برجمان توضيحا لفكر فتجنشتين •

لاحظ أننا وصلنا الى كل ما هو ضد الفلسفة لأن كل ما يجعل للحياة معنى أو يربطها برباط معين حتى لا تكون مجرد جزئيات هو شيء علوى من الصمت المطلق • لذلك فقد وصلنا الى فلسفتين تعارضان الفلسفة • الأولى هى الوجودية وهى ضد الفلسفة بمعنى أنها تدرس القضايا الهامة لكن بلا فكر • والثانية هى فلسفة فتجنشتين التى توصل اليها فى آخر أيامه أى التحليل اللغوى وهى ضد الفلسفة أيضا لأنها تتجه الى تعريف الكلمات فى مجال الفكر بحيث يستطرد التعريف اللغوى الى تعريف لغوى آخر وهذا هو كل شيء •

وقد أدى هذا ليس فقط الى عدم الثقة فى وجود قيم بل الى عدم الثقة فى المعرفة ذاتها •

وان نتحدث عن فيتجنشتين وتحوله الى مجال اللغة كما رأينا فلا بد لنا أن نتحدث عن هيدجار الذى عالج أيضا موضوع اللغة لكن من زاوية أخرى • وهيدجار فيلسوف وجودى قال بأن الوجود الانسانى هو الذى يعطى معنى لوجود شيء • ثم تطرق الى فكرة أخرى عندما قال انه بالنسبة لوجود لغة فى العالم فإننا نأمل فى وجود شيء • وهو أمل لا معقول فى وجود معنى نهائى كلى لكل الأشياء وهيدجار يقول: استمع الى الشاعر ولا يهم مضمون ما يقوله من أشعار لكن يجب أن تستمع

لأنه يوجد شاعر يلقي شعرا أى لأنه يوجد كائن موجود يتحدث .
وهذا يجعلنا نأمل فى أن الوجود له معنى . ولكى يجعل لفكرته أساسا
تجريبيا - حتى لا تكون مجرد فكرة خيالية - فانه يبرهنها بالقول بأنه
فى عصر ما قبل سقراط - وقبل أرسطو - وجدت لغة عظيمة لوجود
الخبرة الأولية المباشرة من الكون . وهذا مجرد افتراض ليس له أى
أساس تاريخى . لكن هيدجار وضع هذه الفكرة كمحاولة يائسة لوضع
أساس تاريخى لفكرته الغامضة .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذه المناقشات ليست مجرد نظريات
لا تأثير لها أن فكر هيدجار مثلا قد أحدث تأثيرا على علم التفسير
الحديث . كما أن هذه المناقشات لها اثرها على عقول الطلاب . فهى
ليست كلمات مجردة لكنها تغير العالم .

وعند هذه النقطة يجب أن نلاحظ عاملا هاما . فسواء كنا نستمع
الى هيدجار الذى يقول « استمع الى الشاعر » وهو يقدم لنا مفهوما
غامضا علويا لدلالات الألفاظ يبدو وكأنه يقدم الأمل أو سواء كنا ندرس
فتجنشتين الذى ينحو الى جانب آخر - لعلة أكثر امانة - عندما يقول
انه لا يوجد الا الصمت فى المستوى العسلى ، فان كل ما نستطيع أن
نفعله هو تحديد الكلمات والمفاهيم التى لا يمكن أن تؤدي الى المعانى
والقيم . والأمر العجيب الذى يهمنى أن الانسان لخص كل هذا واستنتج
منه أن سر كل الأشياء يكمن - بطريقة ما - فى اللغة . لذلك فان عصرنا
هو عصر دلالة الألفاظ .

ولنلاحظ دلالة هذه المناقشة بالنسبة لنا فان السؤال المطروح أمام
هيدجار وفتجنشتين وبرجمان هو : هل يوجد فى الكون من هو قادر
على التحدث ؟ ونجد أنفسنا محاطين ببحر متلاطم من الأفكار الالفلسفية
(ضد الفلسفة) الوضعية - وهى فلسفة متفائلة وتعتبر أساس العلوم
الطبيعية - ماتت بعد أن اثبتت أنها غير كافية فى مجال المعرفة . وما
ظهر بعد الوضعية من بدائل لها مثل الوجودية فى جانب والتحليل
اللغوى فى جانب آخر - وهى أضداد الفلسفة - تجعل الانسان يعيش
بلا أمل فى الأخلاق والقيم والمعانى والتأكد من المعرفة . وحتى بولانى
- الذى كان رائعا فى تحطيم الفلسفة الوضعية - وصل به الحال الى

الشك الكامل فى مجال المعرفة وهو نفس المصير الذى وصل اليه كارل بروبير أيضا • لقد أصبح الانسان فى حيرة فالوضعية انتهت وما تبقى هو الشك فى المعرفة • هذا هو حال الانسان المعاصر سواء أدرك الفرد ذلك أو لم يدركه •

والذين نشأوا فى العشرين سنة الأخيرة يعيشون فى هذه المشكلة • فالحيرة الحقيقية ليست فى انتشار المخدرات واللا أخلاقيات بل ان المشكلة الحقيقية هى فى المعرفة • فهذا جيل الفلاسفة والناس يعيشون فى عصر عدم التيقن من المعرفة فى المستوى السفلى - الذى تنتسب اليه العقلانية ، والذى يتحدث فيه الانسان بلغة ذات معنى يرى الانسان نفسه وقد تحول الى آلة مسيرة ولا مجال له للتأكد من المعرفة حتى فى مجال العالم المادى • أما فى المستوى العلوى - الذى يعزى اليه اللا معقول - يجد الانسان المعاصر نفسه بدون مقولات ★ لأن المقولات أساسها العقل ونقيض الموضوع • وفى المستوى العلوى لا يمكن أن نقرر أن موضوعا ما صواب بالمقابلة مع موضوع آخر خطأ (أو غير صحيح ان أردنا استخدام أحدث المصطلحات) •

وفى مجال الأخلاق فى المستوى العلوى لا يمكن أن تحكم على شئ بأنه صواب بالمقابلة مع الأشياء الخطأ (غير الصائبة) لكن لاحظ أن الأمر أخطر من ذلك • ألا نحس باليأس عندما لا نستطيع الحكم على الصواب بالمقابلة مع غير الصواب ؟ أى أن الانسان فقد وسيلة امتحان الموضوعات فى هذا المستوى العلوى •

★ المقولات : Categories

وتعنى المفاهيم الأساسية والخواص العامة للأشياء (كالأضلاع والزوايا فى المثلث) كما تعنى العلاقات بين ظواهر الحقائق والمعرفة •

فالمقولات تمكن الانسان من الحصول على المعارف الأساسية عن العالم المحيط به • فالتعرف على الأشياء ليس عملية آلية بسيطة ، لكنها عملية معقدة تحول المعلومات المحسوسة الى المجردة والجزئيات الى الكليات والمظهر الى الجوهر والخارجى الى الداخلى والبسيط الى المعقد •

(العرب)

ونحن نرى صدى هذه القضية بوضوح فى الروايات السينمائية وقد تحدثت عن ذلك بشيء من الاسهاب فى كتابى « الهروب من الفكر » *Escape from reason* وفى أماكن أخرى . لكنى أرى أن من واجبى عرض هذا الموضوع لتكتمل الصورة هنا . لذلك سأكرر ما قلتـه . فالرواية التى قدمها أنطونيو بعنوان *Blow up* مثل حى لما أقول فالشخصية الرئيسية فى هذا الفيلم هى شخصية مصور الفيلم فقد ظل يتنقل بقطاته كإنسان محدود يعالج الجزئيات فقط دون أن يقدر أن يضع فى هذه الجزئيات أى معنى على الإطلاق . وتستمر عدسة آلة التصوير الباردة دون أن تعطى حكما أو أن تتحكم فيما تلتقطه من صور . وانى لأتذكر الاعلانات عن هذا الفيلم ان كانت تقول « جريمة بلا ذنب - حب بلا معنى » أى أنه لا توجد مقولات فى مجال الأخلاق . وهكذا صور أنطونى ضياع المقولات الأساسية .

- فى مجال الأخلاق لا نجد المطلق الكلى فوق بل نجد الجزئيات
- وآلة التصوير تلتقط وتصور لكننا لا نجد الا الجزئيات دون الكليات
- هذا هو كل ما يستطيع أن يعملـه العقلانى لنفسه .

وإذا عدنا الى اليونانيين فأننا نجد أقدر الناس وقد حاولوا طوال ألفى عام أن يجدوا وسيلة للتأكد من المعرفة وفهم معناها فى عقل الانسان . لكن الإنسان الذى يبدأ بنفسه بدون أى معرفة أخرى خارج نفسه يفشل فى ذلك تماما .

وهذا ما يريد أن يقوله لنا أنطونى فى روايته وقد نجح فى ذلك . والسينما الحديثة - ومختلف الفنون الأخرى - تريد أن تقول أكثر من ذلك . فهى تريدنا أنـهـما دامت المقولات الأخلاقية قد ضاعت فإن الخسارة الحقيقية ليست فى ضياع هذه المقولات فقط بل فى ضياع كل المقولات الأخرى بما فى ذلك الفرق بين الحقيقة والخيال . وهذا ما نراه فى كثير من الأفلام الحديثة ★

والانسان المعاصر حتى ولو لم يتعاطـ المـخدرات فقد التـمـيـز بانـتـقالـه

★ ذكر المؤلف بعض الروايات الحديثة مثل :

Beje de Joar — Julier of the Spirits — qm the Bajance — Rendezvous — The hoar op the Wolf

من المنطقة السفلية في الفكر • ففي المنطقة السفلية هو مجرد آلة فهو ميت وبلا معنى • لكن ما أن ينتقل الى المنطقة العلوية فإنه ينتقل الى منطقة غامضة بلا مقولات يستطيع أن يستخدمها في التمييز بين عالمه الخارجى وعالمه الداخلى أو أن يميز بين ما فى فكره وما فى العالم الخارجى •

إذا لقد وصلنا اليوم الى الحالة التى نقرر فيها أن الانسان المعاصر ليست لديه مقولات يساعده على التمييز بين الحقيقة وبين ما هو موجود فى رأسه فقط • وكثيرون ممن يحضرون الى بيتنا فى سويسرا (L'Abri) يعانون من ضياع هذا الفرق بين الحقيقة والخيال •

ونحن نجد أربع مقولات متضمنة هنا • ناقشنا ثلاثا منها هى :

(١) المقولة الاخلاقية •

(٢) المقولة الانسانية •

(٣) مقولة الفرق بين الحقيقة والخيال •

أما الرابعة فهى تتعلق بمعرفتنا بالآخرين وسنناقشها فيما يلى :

كانت المقولة الثالثة تتعلق بالانتقال مما هو داخل الفكر الى العالم الخارجى بشئ من اليقين أما المقولة الرابعة فهى عكسها تماما •

كيف يتأتى لشخصين يتقابلان أن يعرف أحدهما الآخر ؟ كيف يتحول كل منهما من ما هو خارج فكره الى ما هو داخل فكر زميله ؟ كيف تكون لنا مقولة تساعدنا على الانتقال الى العالم الفكرى لشخص آخر ؟ وهذا ما يؤدى الى اغتراب الانسان المعاصر ، وهذا هو المجهول الغامض الذى يواجه كثيرين من الناس فى عصرنا الحاضر • الشعور بالإغتراب الكلى •

قد ينام زوجان على سرير واحد عشر سنوات أو أكثر لكن كيف يتأتى لكل منهما أن يدخل فى فكر الآخر ليعرف عنه أى شئ كشخص لا مجرد آلة تتحدث ؟ من السهل أن نتعرف على المظهر الخارجى لآلة نتحدث لكن كيف يمكنك أن تتخطى اللغة لتعرف الشخص هذا الشخص،

المعقد التركيب ؟ هذه مشكلة عامة جدا - مشكلة الضياع .

لقد ظهرت أمامي هذه المشكلة بوضوح منذ عدة سنوات عندما زارني زوج وزوجته في مكان خدمتنا في (L'Abril) وعندما هياأنا لهما غرفة خاصة في شاليه ظل الناس الساكنين حولهم يعانون من صوتهما المرتفع ليلة بعد أخرى . فقد كانا يتحدثان طول الليل حتى الصباح ويتكرر ذلك يوميا حتى ضاق بهم كل الناس . ومما أثار اهتمامي ، ترى فيما يتحدثان طول الليل وكل ليلة ؟ ولقد عاشا معنا مدة طويلة لكنهما لم يكفا عن الحديث ترى ما موضوع حديثهما كل هذا الوقت ؟ وعندما تعرفت عليهما اكتشفت اكتشافا غير كل أبعاد فكري واتجهت الى بعد فكري جديد . لقد اكتشفت انهما كانا يتكلمان لأنهما يحاولان محاولة يائسة أن يتعرف كل منهما على الآخر . لقد كان كل منهما يحب شريك حياته وكانا يتحدثان ويتحدثان لعلهما يجسدان جملة واحدة يفهما فيها مفهوما شاملا بنفس المعنى حتى يتعرف كل منهما على الآخر وحتى يستطيع كل منهما أن يصل الى فكر الآخر . لم يكن لهما عموميات (أمور مطلقة) في عالمهما لذلك حاولا أن يصنعا لأنفسيهما مطلقات في نقطة تلاقى شاملة . لكن لأنهما محددان لم يستطيعا الوصول الى هذا الهدف .

إذا كيف تبدأ ولا شيء عندك الا الجزئيات ؟ وان انتقلت الى خارج نفسك فانك لا تثق أنه يوجد شيء خارجك وان اتجهت الى الدخول في فكر شخص آخر فكيف تعرف أنك قد لمست حياته ؟ وبهذه الصورة لا وجود الا للانسان وحيدا ولا يوجد شخص آخر يتكلم . صمت فقط . فان كنت لا تستطيع أن تقول جملة شاملة (يتفق الآخرون معك على مضمونها) فكيف تبدأ لا يمكنك أن تبدأ بمجرد أن تعرف شيئا معرفة جزئية . بل لا بد من الشمول لأنه لا يوجد أي شخص آخر في أي مكان يقدم هذه المعاني الشاملة . فالعموميات واليقينيات لا بد أن تكون موضوع حديثك ولو في جملة شاملة تبدأ بها .

والمشكلة في مجال المعرفة مركزة في اللغة . فالانسان المعاصر اما أنه متروك في عالمه السقلي كالة ينطق بكلمات لا تقدر الى قيم أو حقائق انها مجرد كلمات أو أنه موجود في العالم العلوي بدون مقولات للقيم الانسانية أو الفرق بين الحقيقة والخيال . دعونا نبكي على جيلنا ! الانسان المخلوق على صورة الله والمفروض فيه أن يكون على علاقة

رأسية بالاله الذى هناك - الاله غير الصامت - وعلى علاقة أفقية بينى
جنسه وصل الى هذه الحالة نتيجة كبريائه الفكرى واعتقاده انه خالق
نفسه .

وأختم هذا الفصل بالاستشهاد بجزء من فيلم Satyricon
لمخرجه فيلىنى Fellini فقد ظهر قرب نهاية الفيلم رجل ينظر الى
زميله وهو يموت موتاً غريباً أو ان جاز أن نسميه موتاً مضحكاً
غامضاً . مات هذا الرجل بكل ما فى حياته من أمل تلك الميتة الغامضة .
الانسان المعاصر المخلوق على صورة الله والذى قصد به أن يكون على
علاقة بالله وبينى جنسه وصل الى ذلك المكان حيث السكون المطلق .
ولقد جعل المخرج هذا الانسان ينطق بالكلمات الآتية :

« يا الهى ... ما أبعد هذا الانسان الراقد عن أهدافه الآن ... »

ما أصدق هذه الكلمات ...

الفصل الرابع

الضرورة المعرفية

أو

الحل

هناك حل مسيحي لمشكلة المعرفة . فإذا بدأنا بالعودة الى عصر النهضة فسنذكر أن النهضة واجهت مشكلة الطبيعة والنعمة والعقلانية والانسانية . ولم يتمكن الفلاسفة من ربط الطبيعة بالنعمة ومن ثم لم يتوصلوا لحل لهذه المشكلة . وحيرة العصر الحديث ترجع الى هذه المشكلة . فالعقليون والانسانيون مع كل ما أوتوا من ذكاء وفطنة لم يتمكنوا من التوصل الى طريقة لربط الطبيعة بالنعمة . لكن في هذا الوقت بدأ عصر الاصلاح ولم يواجه الاصلاح هذه المشكلة بين النعمة والطبيعة . وهذا هو الفرق الهائل . فمشكلة الطبيعة والنعمة ثبتت من عقلانية وانسانية عصر النهضة ولم تحل هذه المشكلة . ولا نزع أن المسيحية كانت تعاني من هذه المشكلة قبل عصر الاصلاح حتى جاء المصلحون وعالجوا المشكلة وتوصلوا الى حلها . لا ، بل ان مشكلة الطبيعة والنعمة لم يكن لها وجود عند المصلحين ، لأنهم كانوا يعتمدون على كلمة الله وهي الاعلان اللفظي ★ للانسان فالمسيحية لا تعاني من هذه المشكلة ، مشكلة التناقض بين الطبيعة والنعمة لأن الاعلان الالهي اعلان لفظي .

ولقد وصلنا في جيلنا الحاضر الى مركز المشكلة اللغوية . لقد ناقشنا استخدام هيدجار في أخريات حياته للغة كما ناقشنا استخدام

★ Propositional وقد ترجمته لفظي الا انه يعنى أكثر من ذلك فهو يعنى اعلان قضية من القضايا أو خبر من الأخبار فهو اعلان خبري لفظي .

(العرب)

ويتجنشتين للغة وفلسفة التحليل اللغوي لكن هناك فرق بينهما . فقد تحقق كل من هيدجار وويتجنشتين من لزوم وجود شيء منطوق لفظي ان كنا نريد أن نعرف لكنهما لم يتوصلا الى شخص يتكلم . فالمشكلة بسيطة لكنها عميقة تتلخص في السؤال : هل يوجد من يتكلم ؟ أم أننا كأشخاص محدودين نكتفى بجمع حقائق وجزئيات كافية لمحاولة تكوين العموميات الخاصة بنا ؟

وفي عصر الاصلاح خاصة ، وفي اليهودية والمسيحية على وجه العموم ، نجد شخصا يتكلم . وقد حدثنا هذا الشخص في اتجاهين . حدثنا أولا عن نفسه حديثا ليس شاملا لكنه حديث صادق حقيقي . وحدثنا ثانيا عن التاريخ والكون لا حديثا شاملا بل حديثا حقيقيا . وبحديثه في هذين المجالين حديثا خبريا لفظيا اعلانيا لم تظهر مشكلة الطبيعة والنعمة في عصر الاصلاح . بل ظهرا متحدين لأن الاعلان الالهي تحدث في المجالين فتلاشت المشكلة . ان كانت العقلانية لم تجد الحل لكن الله المتحدث هو الذي أوجد الارتباط بين طرفي هذه الثنائية : الطبيعة والنعمة .

وهذا يقودنا الى سؤال أساسي : هل الوضع الكتابي ممكن عقليا ؟ هل يمكن أن يوجد التكامل العقلي رغم تمسكنا بالاعلان الخبري اللفظي ؟

واذ أجيب على هذا السؤال أقول انه غير ممكن ان كنت تتمسك بنظرية العلمية الطبيعية الجامدة ★ فان كنت ممن يعتنقون هذه النظرية فان الاعلان الالهي يصبح خرافة . فهو لا يحتوى فقط على بعض المشكلات لكنه يصبح خرافة كاملة لأن كل شيء يصبح آليا . وسواء

uniformity of natural causes in a closed system

والعلية مقولة فلسفية هامة . تعنى علاقة بين ظاهرتين احدهما علة الأخرى . أي أن الأولى تحدد الثانية وتؤدي اليها وتسمى الثانية النتيجة . الا أن هذه النتيجة يمكن أن تكون علة لظاهرة أخرى وهكذا وفي الفلسفة المادية تتحول هذه العلاقة الى علاقة آلية بحتة وهذا ما يقصده المؤلف هنا .

(العرب)

بدأت بنظرية طبيعية فى الفلسفة أو فى اللاهوت فلا فرق • فاللاهوتيون المتحررون لا يمكن أن يفكروا فى اعلان الهى خبرى حقيقى • ولايجاد حل لهذه المشكلة فان البحث فى التفاصيل لا يوصل الى نتيجة لكن المهم هو مواجهة المشكلة الكبيرة موضوع الافتراضات السابقة • فان كنت ممن يعتقدون اعتقادا جازما فى العلية الطبيعية المغلقة فسواء عبرت عن نفسى بتعبيرات فلسفية أو دينية فان موضوع الوحي الالهى اللفظى أو المعرفة التى تصل الى الانسان من الله مرفوضة تماما ولا يمكن التفكير فيها • وذلك لأنه من التعريف الأساسى نجد كل شىء آليا فلا وجود لمعرفة تأتينا من الخارج أى من الله •

ان كان هذا رأيك - وأنت ترفض أى رأى آخر - حتى ولو أدى الى سلب الانسانية من الانسان أو حتى لو كان مناقضا لكل الحقائق التى نعرفها عن الانسان فقد وصلت الى طريق مسدود • ولن يمكنك التمسك بنظرية العلية الطبيعية الجامدة المغلقة - وهو الرأى الشائع الآن - الا اذا أنكرت ما يعرفه الانسان عن الانسان • واذا تمسكت بهذه النظرية حتى ولو سلبت الانسان انسانيته أو عارضت كل البراهين عمسا يعرفه الانسان عن الانسان فيجب أن تتأكد أنه لا مجال للاعلان اذا بل ان تمسكت بنظرية العلية الطبيعية الجامدة معارضا كل البراهين (وأنا مصمم أنها ضد كل البراهين) فلن تستطيع أبدا أن تدرس الفرض الآخر الذى كان العلة الحقيقية التى أبدأت العلم الحديث ألا وهو نظرية العلية الطبيعية المحدودة وهى النظرية التى تحتل اعادة التنظيم بواسطة الله أو بواسطة الانسان •

وفى علم الانثروبولوجى (أى علم الانسان) وهو علم عام لا شأن له بالدين فكرة طريفة تقول ان الفرق بين الانسان وغيره من الكائنات هو اللغة •

كان الفكر السائد قديما ان الانسان هو صانع الأدوات • فمتى رأيت كائنا يصنع أدواته بنفسه فلا بد أنه انسان • ولكن هذا الرأى لم يعد صحيحا • والفرق الآن هو اللغة • فعالم الانثروبولوجى يقرر انه ان أردنا أن نميز بين الانسان وسائر المخلوقات فان الفارق الحقيقى هو فى اللغة وليس فى صنع الأدوات • فالكائن الناطق هو الانسان وغير الناطق ليس انسانا •

إذا فقد استنتجنا أن ما يجعل الانسان انسانا هو الكلام . ونحن ننقل أفكارنا الى الآخرين عن طريق الكلام - سواء المنطوق أو المكتوب - على هيئة لغة بل ان الأمر أعمق من ذلك : فابنا عندما نفكر تفكيراً صامتاً في عقولنا فاننا نفكر باستخدام اللغة . وقد تحوى عقولنا أشياء أخرى بجانب اللغة لكن كل هذه الأشياء مرتبطة باللغة . وقد يحتوى ك.ب ما على صور بلاغية مختلفة ، لكن هذه الصور البلاغية يجب أن تكون لها علاقة مستمرة بالاستخدام العادى للتعبيرات المختلفة والا قلن يفهم أحد شيئاً عن محتوى هذا الكتاب لذلك فسواء كنا نتكلم عن الاتصال الخارجى بالآخرين أو التفكير الداخلى فالانسان يستخدم اللغة .

والآن لندرس هذه المناقشة من وجهة نظر غير مسيحية أى من وجهة نظر انسان يؤمن بنظرية العلية الطبيعية بطريقة جامدة . هذا الانسان يعتبر مفهوم الوحي (وخصوصاً الوحي اللفظى) مجرد هراء . والسؤال الذى يجول بخاطرى دائماً كلما فكرت فى هذه النظرية (العية الطبيعية الجامدة) هو : هل هذه النظرية قابلة للتطبيق فى ضوء ما نعرف ؟ وأنا أؤكد انها غير قابلة للتطبيق لأنها تفشل فى تفسير الانسان كما تفشل فى شرح وتوضيح نظام الكون . وهى تفشل أيضاً فى مجال فلسفة المعرفة .

وواضح أن الوحي اللفظى غير ممكن على أساس نظرية العلية الطبيعية لكن المناقشة كلها تصبح صحيحة أو لا محل لها فى ضوء الاجابة على هذا السؤال : هل نظرية العلية الطبيعية مقبولة فعلاً ؟ وسأناقش هل هذه النظرية مقبولة أو حتى معقولة ، لا على أساس الايمان المسيحى ، بل على أساس ما نعرفه عن الانسان والكون الحالى .

ان المسيحية تقدم مجموعة من الفروض تختلف تماماً عن غيرها من الفروض التى لا تقى بالغرض .

وبهذه المناسبة يجب أن نحترس عند استخدام لفظ فرض ففى انجلترا عندما يستخدمون لفظ افتراض Presupposition فانهم يواجهون صعوبة لأنها تعنى عندهم شيئاً أنت غير واثق من حيازته . لكننى عندما

أستخدم هذه الكلمة فأنا أعنى بها شيئاً آخر . إذ أعنى الأساس الذى أمتحنه وأقبله أو أرفضه . وكثيرون يعتمدون فى تكوين فروضهم على العائلة أو المجتمع دون أن يعرفوا هذه الفروض وهذا خطأ .

وأنا أحث الناس على مناقشة فرضين أساسيين : العلية الطبيعية الجامدة والعية الطبيعية المرنة open System فى فترة زمنية محدودة . وعلينا أن نختار من هذين الفرضين ما يناسب الحقائق . والمسيحية لها مجموعة مختلفة من الفروض . فهى تبدأ بالاله الموجود ، الاله الذات غير المحدود ، الاله الذى صنع الانسان على صورته . وقد صنع الانسان متكلما ليستخدم اللغة فى الاتصال بالناس . وعلماء الأنثروبولوجى يقولون انهم لا يعرفون لماذا يصنع الانسان اللغة ويستخدمها . فالانسان مختلف والكتاب المقدس والمسيحية تقول : « أنا أستطيع أن أقول لك لماذا؟ ذلك لأن الله ذات غير محدود » لقد وجد الاتصال بين الأتانيم قبل الخليقة . وقد صنع الله الانسان على صورته . وجزء من هذه الصورة ان الانسان يكون قادرا على استخدام اللغة وهذا جزء من الوحدة المسيحية المتكاملة .

والآن لنسأل أنفسنا هذا السؤال : فى هذا الاطار المسيحى ، هذا الاله الشخصى الموجود والذى صنع الانسان على صورته متحدثا حتى يستطيع أن يتعامل على المستوى الأفقى مع بنى جنسه وليتخاير معهم باستخدام اللغة ، هل من غير المعقول أو حتى من العجيب أن هذا الاله الشخصى يستطيع أن يمارس الاتصال بالانسان عن طريق التخابير ؟ والجواب المنطقى لا طبعاً . أنا شخصياً لم أقابل مع أى ملحد جال بخاطره أن هذا غير ممكن فى الاطار المسيحى . بل على العكس فان هذا هو المتوقع . إذا ان كان الله قد خلقنا للتعامل معاً باستخدام اللغة وأعطانا امكانية التخابير وتبادل الحقائق فلماذا نظن أنه لا يقصل بنا ليخبرنا لغويا أيضاً ؟ فى ضوء الاطار المسيحى الكلى فان هذا ممكن جداً ومعقول أيضاً فالاعلان الخبرى ليس عجيباً – ولا نقول لا يمكن التفكير فيه .

لقد صنعنا الاله الشخصى لنحدث معاً باستخدام اللغة فان كان الله الذات قد صنعنا لنستخدم اللغة كوسيلة اتصال – كما يفعل الناس – فلماذا نمتعره عجيباً أن نفكر فى الله الذى كلم شاول باللغة العبرية

فى الطريق الى دمشق ؟ لماذا نتعجب ؟ هل نعتقد ان الله لا يعرف العبرية ؟ وعلى نفس المستوى نقول ان كان الرب طيبا فلماذا نعجب ان يتصل بالانسان مستخدما اللغة ليخبرنا عن الحق الحقيقى فى كل المجالات التى يتحدث فيها ؟ *

ان هذا الامر يبدو عجيبا لمن قد تشبع بالفروض المسبقة عن العلل الطبيعية الجامدة . وفى ضوء هذه الفروض يبدو الامر مستحيلا .

لكن الموضوع - كما شرحته - هو اى الفرضين يثبت حقا وتجريبييا ازاء الحقائق التى نراها حولنا فى العالم .

اذا فقد توصلنا الى ان الحل مبنى على استخدام اللغة فى الاعلان ان المسيحية لا تعاني من مشكلة التناقض بين الطبيعة والنعمة . ومن المدهش حقا ان شخصيتين عظيمتين مثل هيدجار وفتجنشتين ، فى مجال فلسفة المعرفة المعاصرة - توصلا الى ان الحل يكمن فى مجال اللغة لكنهما لم يتوصلا الى وجود الاله الذى يتحدث .

ان المسيحية لا تعترف بالمشكلة بين الطبيعة والنعمة . ولكنى اضيف بكل وداعة ايضا ان المسيحية ليست لديها اى مشكلة فى مجال المعرفة ايضا هل تذكر الفصل الثالث وما قلناه عن معاناة الانسان المعاصر فى مجال المعرفة والظلام المطلق فى هذا المجال ؟ اما بالنسبة للمسيحي فلا توجد مشكلة فى ميدان المعرفة كما انه لا مشكلة فى ميدان الطبيعة والنعمة . ليس مجرد انه تصادف وجود حل لهذه المشكلة ، بل لان المشكلة غير موجودة اصلا فى البنيان المسيحي .

ولكن واضحين فى بيان سبب عدم وجود مشكلة فى البنيان المسيحي ، فمن وجهة النظر المسيحية يجب ان نعود فنتمسك بما قاله اوبنهيمر وهويتهيد عن مولد العلم الحديث . ودعونى اذكركم بما قلته فى فصل سابق . لقد قال اوبنهيمر وهويتهيد انه لولا المسيحية لما امكن

★ سنتحدث باسهاب فى هذا الموضوع عن الوحي الالهى اللفظى فى الملحق رقم (١) هل الاعلان الالهى غير صحيح ؟

(م ٥ - اله غير صامت)

أن يولد العلم الحديث .. لماذا ؟ لأن جاليليو وكوبرنيكوس وكيلر وفرنسيس بيكون وغيرهم حتى نيوتن وفاراداي فهموا أن الكون موجود لأن الله صنعه . ولقد آمنوا - كما عبر عن ذلك هويتهيد تعبيراً جميلاً - أنه لأن الله حكيم فإن الإنسان يستطيع أن يكتشف حقيقة الكون بواسطة العقل والحكمة . وهكذا ولد العلم الحديث . لقد كان لدى اليونانيين كل الحقائق التي كانت لدى العلماء الأوائل تقريباً لكنها لم تتحول إلى علم لأنهم لم يؤمنوا كما آمن هؤلاء العلماء (كما يقول هويتهيد) بأن حقيقة الكون يمكن الوصول إليها بالعقل لأن صانع هذا الكون هو الإله الحكيم .

وكما أكدت مرة ومرات ، فأنا لا أعتقد للحظة واحدة أنه لو أن الناس في تلك المرحلة المتقدمة من التاريخ كانت لهم نفس فلسفة المعرفة التي للإنسان المعاصر ، لما ولد العلم الحديث بل انى أعتقد ان العلم سينتهى ونهايته وشيكة كما أعتقد أنه سينحصر في شيئين فقط : مجرد تكنولوجيا - وممارسة لعلم الاجتماع * - فأنا لا أعتقد ولو للحظة ان العلم يمكنه الاستمرار بأهدافه ما دام الأساس الذى بنى عليه العلم قد انهار . لكنى واثق من شيء واحد : ان العلم ما كانت لتقوم له قائمة لو كان لدى الإنسان عندئذ نفس الشك الذى يعانى منه الان في مجال المعرفة فما كان ممكناً البدء بثقة في الخطوات الأولى التى خطاها أولئك العلماء .

فإذا نقلنا هذا الفكر إلى المعرفة فأننا نجد نفس الحالة . لقد كان اعتقاد العلماء الأول في ذات الله غير المحدود لا كفكرة مجردة بل ذات صنعت كل الأشياء هو سبب ثقتهم في الوصول إلى تفسير للكون . فالإله الموجود صنع الكون وكونه بشكل منتظم وبالعلاقات ثابتة . وحول فكرة وجود الله الذى خلق الكون متألفاً متماسكاً فيه علاقات ثابتة تدور كل مجالات العلم .

وهكذا صنع الله الكون الخارجى الذى جعل العالم ممكناً لكنه

★ لقد شرحت هذا الموضوع في كتابى : الكنيسة في نهاية القرن العشرين .

صنع أيضا الانسان وجعله يسكن هذا الكون . لم يصنعه ليسكن أى مكان آخر . لذلك نرى ثلاثة أشياء معا :

● الله ، الذات الالهية غير المحدودة ، الذى صنع الكون .

● والانسان المخلوق ليعيش فى الكون .

● والكتاب المقدس الذى اعطاه لنا ليخبرنا عن الكون .

فهل نندهش لوجود وحدة بين هذه الثلاثة ؟ ولماذا نندهش ؟

اذا لقد خلق الكون ، كما خلق الانسان ليعيش فى الكون ثم أعطانا الكتاب الاعلان الخبرى اللفظى الحقيقى ليخبرنا عن كل ما نريد معرفته . وفى الكتاب المقدس لا يخبرنا فقط عن الأخلاق التى تمكثنا من الحياة حياة أخلاقية حقيقية بدلا من العرف والعادات السائدة ، لكنه يعطينا فهما نستطيع به ربط معلوماتنا . والسبب فى عدم وجود مشكلة المعرفة عند المسيحى هو نفس سبب عدم وجود مشكلة بين الطبيعة والنعمة . فنفس الاله الحكيم صنع شيئين : ما نعرف ومن يعرف . الموضوع والذات ووحدهما معا . لذلك فليس غريبا ان وجدنا ارتباطا بين الاثنين أليس هذا ما نتوقعه ؟

ولأن العلم الحديث بدأ على أساس وجود اله حكيم ، لذلك يمكن التوصل الى نظام الكون بالعقل . هل نندهش ان وجدنا ارتباطا بين العالم الذى يبحث عن المعرفة وبين موضوع المعرفة ؟ لا بل ان هذا عين ما بجب أن نتوقعه بل لأننا نؤمن بالاله الحكيم الذى صنع الاثنين فلا بد من وجود ارتباط معقول بين الذات والموضوع .

وفى الفصل السابق ان ما يحير الانسان المعاصر ويجعله يخشى الظلام الكلى ، أنه لا يستطيع أن يتحقق من العلاقة بين الذات والموضوع . أما الوضع المسيحى فيبدأ من منطلق افتراضات مختلفة تماما . فالمسيحية ترى سببا للارتباط والعلاقة بين الذات والموضوع ومن العجيب أن هذا الارتباط ليس مناقضا للخبرة الانسانية بل هو

اختبار كل الناس • فلو كان هذا الارتباط مجرد فكر ديني غامض يقدمه لنا شخص بطريقة بعيدة كل البعد عن الحقيقة وبدون أية وسيلة لاختباره اختباراً موضوعياً لكان مجرد وهم ولا يهمنا مدى عدم الارتباط في الفلسفة النظرية للشخص مادام يعيش في الواقع كما لو كان هناك ارتباط بين الذات والموضوع • هل تذكر الفيلم الذي أخرجه جودارد godard ؟ لقد وضح لنا أن الإنسان يمكنه أن يخرج من الدافذة بدلاً من الباب ، لكنه لا يمكن أن يخرج من الجدران الصلبة •

والحقيقة ان كنا سنحيا في هذا العالم فيجب ان نحيا ونحن مرتبطون ارتباطاً كاملاً بالأشياء الموجودة حتى ولو اعتنقنا فلسفة تنادي بأن الارتباط غير موجود • وبدون ذلك لا يمكن أن نحيا في العالم وعلى سبيل المثال نجد أن كل الناس يحبون حتى ولو أنكروا وجود ما يسمى بالحب • وكل الناس عندهم وازع أخلاقي حتى ولو أنكروا وجود هذا الوازع ، وكل الناس يتصرفون كما لو كان هناك ارتباط بين العالم الخارجي والعالم الداخلي حتى ولو لم يكن لديهم أي أساس لهذا الارتباط •

لذلك فاني أرى أن النظرة المسيحية تتوافق تماماً مع الخبرة الانسانية ، ولا يوجد نموذج آخر خلاف هذا النموذج الموجود في اليهودية والمسيحية (الذي نراه في العهدين القديم والجديد) يمكن ان يفسر لنا سبب الارتباط بين الذات والموضوع ، بحيث يتحتم على الانسان التصرف على هذا الأساس • فكل انسان يتصرف - أو بالحرى يجب أن يتصرف - طبقاً لذلك • ولا يوجد نظام آخر يدلنا على سبب الارتباط • وبلغة أخرى فكل الناس يتصرفون دائماً وبانتظام باعتبار أن المسيحية حقيقة •

لنرجع الى الفكرة العامة - التي سبق الاشارة اليها - أن الانسان العصري ينادي بأن الحب غير موجود وان كل ما نراه هو مجرد جنس لكن هذا الانسان نفسه يقع في الحب • الناس يقولون بأنه لا وجود للعواطف العسادية وان كل أفعالنا غرضية آلية ، لكنهم بلا استثناء يشعرون بتلك العواطف • وحتى في المجالات الأعمق مثل المعرفة ليست العبرة بما يقول الانسان انه يعتقد فيه ، إذ أنه في كل لحظة يتصرف باعتبار أن المسيحية حقيقة ، وان النظام المسيحي هو الوحيد الذي

يعرفه لماذا يستطيع أن يتصرف (أو يجب أن يتصرف) بالطريقة التي يتصرف بها • ولا طريق آخر •

ولو الانسان يختلف عن باقى المخلوقات لأنه مخلوق على صورة الله - له شخصية ويتمتع بانسانية - لكنه على أى حال مخلوق كسائر المخلوقات وعلى هذا المستوى فهو متساو مع كل المخلوقات اذا فمع أننا نختلف عن سائر المخلوقات لأننا نتميز بالشخصية الا أننا نتساوى معهم من حيث أننا جميعا مخلوقات ولأن الله صنعنا جميعا بهذه الكيفية • اذا قرأت التطبيق الذى قدمته فى كتابى (التلوث وموت الانسان Polution and the Death op Man تحت عنوان النظرة المسيحية لعلم البيئة فسترى كيف شرحت هذه النقطة • فى مجال علم البيئة قلت ان النظرة المسيحية - كما أراها - هى أننا ما دمنا نتساوى مع باقى المخلوقات ، فيجب أن نتعلم كيف نتعامل مع النباتات والحيوانات والهواء بطريقة صحيحة • فهل نخطو الآن خطوة أخرى فى مجال المعرفة فنقول ان الحيوان المخلوق مثلى هو الموضوع وأنا الذات ، وقد صنعنا نفس الاله الحكيم ، لذلك فأنا أعرف المخلوقات حق المعرفة • وفى علم البيئة يجب أن أعامل هذه المخلوقات معاملة حسنة بحسب الطريقة التى صنعها بها الله فلا أفسدها • لكن الفكرة أعمق من ذلك ، فلا يقتصر الأمر على مجرد المعاملة الحسنة بل يجب أن أفهم جيدا أنها مخلوقات نظيرى •

وفى علم المعرفة نقول ان الشيء موجود لأن الله أوجده • وهذا الشيء ليس امتدادا لجوهره وليس مجرد وهم من الأوهام - كما يرى عدد كبير من الشرقيين لكن الشيء موجود وجودا حقيقيا • ولا نعجب ان وجدنا علاقة بين المشاهد وبين موضوع المشاهدة لأن الله صنعهما كليهما • لقد صنعهما نفس الاله وفى نفس الاطار • لذا فالمسيحى لا يجد مشكلة فى مجال المعرفة • وكل انسان يتصرف على أساس هذه الحقيقة مهما كانت فكرته أو فلسفته فى مجال المعرفة • فالمسيحى لا يندهش لوجود شجرة ولا يعجب لأنه لا يستطيع اختراقها والسير من خلالها لأنه واثق من وجود الشجرة •

والآن ، على كل انسان أن يواجه هذه الحقيقة ، سواء أكان هذا الانسان عالما مفكرا ممن يمقتون المسيحية ، أو كان انسانا بسيطا

يتصرف كما لو كانت المسيحية حقيقة ويتصرف على هذا الأساس دون مناقشة • الى كل من هذين الصنفين من الناس يقول المسيحي : ماذا تتوقع ؟ هذا أمر طبيعي لأن الاله الحكيم صنع الاثنين الموضوع والذات فقد خلق الذات كما خلق الموضوع وأعطانا الكتاب المقدس لنعرف ما نحتاجه من معرفة •

عندما هاجم ميخائيل بولاني الفلسفة الوضعية وحطمها كما أوضحنا في فصل سابق ، لم يصل الا الى الشك • لكن المسيحي لا يعاني من الشك في علاقة الذات والموضوع لأن نفس الاله صنع الاثنين • لذلك فالعلاقة بين الاثنين لا تعتبر مفاجأة للمسيحي •

يبقى سؤال يجب أن نتناوله في هذه النقطة ، وهو كيف ننظر الى مشكلة مدى دقة المعرفة • وكل هذه الأشياء تتعلق باللغة التي تقدم لنا الموضوع العصري عن التحليل اللغوي لا كفلسفة بل كوسيلة ويمكننا في بعض النقط أن نعتبر التحليل اللغوي وسيلة نافعة ، ان كنا نستطيع أن نرفضها — بطريقة واعية — كفلسفة عقلية • وفي الحقيقة فان العلاقة بين الذات والموضوع وبين مشكلة اللغة علاقة حقيقية قوية •

والآن علينا أن نتحقق من وجود ثلاث أفكار محتملة في موضوع اللغة :

الفكرة الأولى اننا عند استخدامنا لأي كلمة أو أي جملة ننطق بها فاننا نتأثر بالخلفية الخاصة بها background وهذا يؤدي الى عدم التفاهم بيننا تفاهما مطلقا لأن خلفياتنا تؤثر على كلماتنا وجملنا حتى اننا لا نلتقي •

أما الفكرة الثانية فترى اننا بمجرد أن نستخدم اصطلاحا معيناً في هيئة كلمات فان كل انسان سيفهم المقصود بطريقة كاملة شاملة متعارف عليها ، ، لأننا جميعاً نستخدم نفس الكلمات •

وهنا نجد انفسنا بين طرفي نقيض لكن كلا من الفكرتين غير مناسب •

فلا الفكرة الأولى التى تقول بأن خلفياتنا تجعل كلماتنا غير متعارف عليها فلا نلتقى ، ولا الفكرة الثانية التى تقول بأن الكلمات لها معنى واحد شامل متعارف عليه صحيحة . فكلتااهما لا تفسران ما يحدث فى اللغة . اذا ما هى الحقيقة ؟ وكيف نتعامل باستخدام اللغة فى العالم؟ من المؤكد أننا نجد أنه بالرغم من تأثرنا بخلفياتنا فى اللغة فنتلون كلماتنا بلون خلفياتنا الا أننا نلاحظ وجود نوع من التوافق بين العالم الخارجى والخبرة الانسانية تؤكد لنا امكان التفاهم والاتصال بالآخرين مع اننا لا نصل الى المعنى الشامل لنفس الكلمة . بمعنى آخر فان كلماتنا تتوافق وان كانت لا تتطابق تماما وهذه هى الطريقة التى نتعامل بها فى مجال اللغة . والمثل الذى أقدمه لتوضيح هذه الفكرة هو كلمة « شاي » فهذه الكلمة تعنى فى لغتنا مشروبا معيناً . لكن زوجتى التى ولدت فى الصين كان لها خبرة معينة مع الشاي . فقد تعلمت من الصينيين شيئا لا زالت تذكره حتى الآن وهو كيف تشرب الشاي من طبق كبير بينما يكون فيها مملوءا بالأرز الذى تضعه فى أحد جوانب فيها تحت خدّها ثم تشرب الشاي دون أن يلمس الأرز . كل هذه الصورة ما زالت مرتبطة فى ذهنها بكلمة شاي . اما بالنسبة لى فان كلمة شاي تذكرنى بالخبرة التى أخذتها من أمى فى إحدى مدن فيلادلفيا . فقد كانت تصنع لى الشاي بطريقة تختلف عن الطريقة المألوفة الآن . فقد كانت تضع الشاي فى مصفاة صغيرة من الألومنيوم تسقطها فى الماء الساخن . وما زالت هذه الصورة مرتبطة فى ذهنى بكلمة شاي .

اذا فكل منا عنده صورة خاصة ترتبط بالكلمة . لكن هل يخطر ببالك لحظة الله بسبب اختلاف المضمون بينى وبين زوجتى أو اختلاف الصورة المنعكسة من خلفياتنا اننى عندما أقول لزوجتى « هل تسمحين لى يا عزيزتى باناء الشاي » فانها لا تأتى به فأسألها « هل فهمت ما قلته ؟ » ان كنت ممن يعانون من فلسفة اللغة والتحليل اللغوى فتذكر هذا دائما . ابتعد عن طرفى النقيض ، واعلم أنه يوجد توافق فى عالمنا الخارجى وفى خبراتنا الانسانية المشتركة .

هذا الكلام صحيح بالنسبة للغة كما أنه يجب أن يتأكد صدقه بالنسبة للمعرفة أيضا . ولسنا فى حاجة أن نختار بين طرفى نقيض متباعدين سواء فى اللغة أو فى المعرفة فنحن نستطيع أن نعرف معرفة

حقيقية دون أن نعرف معرفة شاملة • وما دام الشيء موجودا وأنا موجود وهناك ارتباط بيننا فلا داعى للمعرفة الشاملة اذا •

وأخيرا فلا نستغرب أننا نصل الى الحقيقة لأنه لا يوجد انسان يعرف معرفة شاملة الا الله ولا سواه •

وهكذا نلاحظ أنه يوجد توافق كاف يسمح لنا بالتفاهم مع الآخرين ولسنا فى حاجة الى المعرفة الدقيقة الشاملة عن شيء مادام هذا الشيء موجود وأنا موجود ويوجد ارتباط بيننا • وفى ضوء الخلفية المسيحية نجد أننا جميعا خليفة الله نعيش فى هذا العالم • وعندما نستخدم كلمات مثل « منزل » أو « كلب » فإنها كلمات ليست شاملة أو دقيقة عند استخدامها بين شخصين كما أن كل واحد منهما قد يكون متأثرا بتأثيرات شخصية ومع ذلك فهما يستطيعان أن يتفاهما بطريقة دقيقة ولكنها غير شاملة •

ولا نستغرب ان كان الأمر صحيحا بالنسبة للمعرفة – لا عند مجرد سماع كلمة – بل فى العلاقة بين الذات والموضوع •• ولا نعجب ان كنا لم نعرف الموضوع معرفة شاملة ولكننا نعرفه بصدق

ان كان نفس الاله قد صنع الذات والموضوع فلا غرابة ان توجد علاقة بينهما •

اذا فقد وجدنا ان المسيحية لا تعاني من مشكلة المعرفة أبدا • وفى العصور القديمة عندما كان الناس متأثرين بالأساس المسيحى لم تحدث أبدا مناقشة حامية متوقرة فى موضوع المعرفة كما يحدث اليوم • درس الناس العديد من هذه الأسئلة بتفاصيلها لكن لم توجد المشاكل المنتشرة هذه الأيام • ولعل أساس المشكلة الحديثة ان الانسان انتقل من نظام العلة الطبيعية المرنّة التى تسمح لله أو الانسان بإعادة تنظيمها الى نظام العلة الطبيعية الآلية الجامدة • ولذا فان فلسفة المعرفة تدهش • أما اذا اتبعنا الأساس المسيحى فلن يكون فى الأمر مشكلة •

وما هى النتيجة ؟ هناك نتائج ثلاث :

أولا : ها !نا موجود ، اطلع للخارج • ولو ان هذه جملة

بسيطة لتوضيح الفكرة لكنها تمثل المشكلة الحقيقية في المعرفة • كيف
أحصل على قدر معين من المعرفة أو كيف أصل الى المعرفة عامة أو كيف
أعرف أنى أعرف ؟

ثانيا : كيف أميز بين تعرفى على شيء موجود وبين الهلوسة أو
الصور المضللة الخادعة ؟

ومن الواضح أنه توجد حالات تقع على الحد الفاصل بين السوى
والمرضى فاصابات المخ ومرض الفصام وبعض الأمراض العقلية الأخرى
قد تجعل الفرق بين الحقيقة الموضوعية وبين الخيال غير واضح • كما
أن تعاطى المخدرات قد يؤدي الى نفس الشيء • وسواء أكان مرضيا
نفسيا أو فصاما مؤقتا نتيجة تعاطى المخدرات فإن المسيح يرى فى تلك
المشكلة نتيجة طبيعية للسقوط • فالأمور لا تسير وفق الطريق الذى
• سمه الله • فهناك اغتراب بين الانسان والله وبين الانسان ونفسه وبين
الانسان والطبيعة • كل هذا نتيجة السقوط • لذلك لا نستغرب ان نجد
حالات على الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال •

والمسيحى له حالة تختلف تماما عن حالة الانسان المعاصر • فلو
تأملنا رواية أنطونونى Blow up نجد أن المسيحى عنده الثقة منذ
البدء فى وجود عالم خارجى خلقه الله وهذا العالم موضوع حقيقى •
وهذا يختلف عن الانسان الذى لا يعرف من أين يبدأ أو غير الواثق من
وجود أى شيء •

ومشكلة الفلسفة الوضعية كما شرحتها أنها تفترض البدء بدون
أى معلومة سابقة تدل على وجود أى شيء • أما المسيحى فهو لا يقف
هذا الموقف لكنه يعرف أن الأشياء موجودة لأن الله خلقها • ولعل
السبب فى أن الشرق لم ينتج علما خاصا به أن الفكر الشرقى لم يكن
متأكدا من الوجود الموضوعى للحقيقة • وبدون العالم الخارجى فلا
وجود الموضوع للبحث العلمى • ولا أساس للتجريب أو الاستنتاج •
أما المسيحى فإنه متأكد من الحقيقة - أى وجود عالم خارجى - فإنه
يجد أساسا للمعرفة الحقيقية • ومع اعترافنا بأننا نعيش فى عالم
ساقط فيه الحالات الشاذة والحالات التى تقع على الخط الفاصل بين
السوى والشاذ إلا أن المسيحى لا يقع فى المشكلة التى عالجها أنطونونى
فى فيلمه Blow up.

وليس ذلك فقط ، بل ان المسيحى يستطيع فى العالم الذى خلقه الله وهذا هو الفرق الأساسى بين العلم والخيال العلمى . فالعلم يجب أن يوجد فى عالم موجود لا ينفصل عنه .

لانسغرب اذا ان كان الاله الحكيم الذى خلق العالم ووضعنى فيه ، جعل علاقة وارتباطا بين المقولات التى فى عقلى وبين ما هو موجود فى العالم ، لسبب بسيط هو انى أعيش فى هذا العالم . وهذه نتيجة طبيعية للنقط التى أثرتها سابقا ، فما دام العالم قد خلق بالطريقة التى ذكرتها الديانات اليهودية والمسيحية ، فلا نستغرب ان كان فى عقل الانسان مقولات تتوافق مع العالم الذى يعيش فيه .

هناك دراسات كثيرة هذه الأيام عن موضوع انتظام المقولات فى العقل الانسانى . قام بهذه الدراسات علماء مثل كلود ليفى سترأوس Claude Levy Strauss أو نوجم كومسكى Noam Chomsky فى دراساته عن أساسيات علم النحو وجسد هؤلاء العلماء أنه توجد - بطريقة أو بأخرى - مقولات محددة فى العقل الانسانى . لكن المسيحى يقول وماذا تتوقعون ؟ من الطبيعى ان ذات الله اللامحدود الذى صنع الله وأوجدنى فيه يضع فى فكرى مقولات تتوافق مع المكان الذى وجدت فيه .

دعونا نناقش ذلك فى العالم المادى الطبيعى فى جسمى جهاز تنفس يشمل الرئتين . هاتان الرئتان تناسبان الجو المحيط بالأرض الذى أعيش فيه . فانا لا أستطيع أن أعيش فى المريخ أو الزهرة أو القمر . لكن هذا الجهاز التنفسى يتناسب مع البيئة التى أعيش فيها لماذا ؟ ليس غريبا أن جهازى التنفسى يتناسب الجو الذى أعيش فيه . لأن نفس الاله الحكيم الذى خلق الجو هو الذى خلق جهازى التنفسى أيضا . لذلك يجب أن نتوقع هذا التوافق بين الجهاز التنفسى وبين العالم الذى أعيش فيه .

فإن عدنا الى مجال المعرفة فلن نستغرب أن الله جعل تناسباً بين مقولاتى العقلية والعالم الذى أعيش فيه . اذا ففى موضوع المعرفة: ان كان الاله الحكيم قد خلق العالم كما خلقنى فلا عجب ان جعل

مقولاتى العقلية تتناسب مع العالم الذى اعيش فيه لأنه صنعهما كليهما .
فهنا المقولات العقلية وهناك مقولات العالم الخارجى فهل استغرب ان وجدت
توافقا بينهما ؟ وهذا يختلف اختلافا بينا عن الفلسفة الوضعية التى لم
تجد وسيلة لشرح سبب وجود أى شىء . وكما قلت سابقا ان الوضعية
بكل صورها انتهت . لأن كلمة « فرض » كلمة ايمانية بالنسبة للوضعية
ولا يوجد شىء داخل النظام الوضعى يشرح امكانية وجود الفروض .
فهذه الفلسفة تناقض تماما الفكر المسيحى .

دعونا نلاحظ عاملا آخر فى الفكر الكتابى عن موضوع المقولات .
فالكتاب يعلمنا بطريقتين مختلفتين : فهو يعلمنا أولا بعض الحقائق
بالطريقة التعليمية الوعظية وبالتعبير اللفظى وبالخبر . فمثلا يعلمنى
الأسس التى اتناولها فى كتابى هذا أما ثانيا فالكتاب يعلمنى
بطريقة اظهار ما فعله الله فى العالم الذى خلقه . ويجب ان نقرأ
الكتاب المقدس لعدة أغراض . فنحن نقرأه بحثا عن الحقائق
كما نقرأه للتأمل الروحى . لكن قراءة الكتاب
المقدس كل دم تؤدى الى شىء آخر . فهى تخلق فىنا عقلية جديدة .
ففى عصرنا الحاضر نجد أنفسنا محاطين بنظرية وحدة العلل الطبيعية
الآلية الحامدة . لكننا عندما نقرأ الكتاب نتكون فىنا عقلية جديدة .
وهذه حقيقة ليست هينة اننا نتمتع بعقلية سليمة بالرغم مما يحيط
بنا من افكار مفروضة علينا من كل ناحية - فى التربية والآداب والفن
وفى وسائل الاعلام المختلفة .

عندما أقرأ الكتاب المقدس أجد الاله الحكيم يتدخل بنفسه فى
التاريخ وفى الكون ويعمل بطرق تؤكد وتثبت ما قاله عن العالم المحيط
بنا وهذا ما أسميه عهد الخليفة . فما يفعله لا يتناقض أبدا مع ما
يقوله فعندما يعمل الله عبر التاريخ ، فانه يعمل بتوافق تام مع ما عرفنا
به عن العالم الخارجى . والأعمال الكونية التى تعمل فى الجزئيات تحدد
وتؤكد ما قاله عن هذه الجزئيات .

لذلك فإننا نجد فى الكتاب المقدس شيئين :

التعاليم الوعظية ثم الأشياء التى نقرأها فنقول « نعم لا شك ان
الله يفعل هكذا » وفى الكتاب نجد معجزات لكن المعجزات ليست هى كل
الكتاب انها أحداث غير عادية لذلك أسميناها معجزات لكننا نجد الله

يعمل عادة في العالم من خلال القوانين الطبيعية للعالم كما أوجدها .
فماء البحر الأحمر يدفع للخلف ، لكنه يستخدم لذلك ريحا شرقية .
والمسيح يشوى سمكا لكنه يستخدم النار لشئ السمك .

وهنا وهناك نجد معجزات ، لكن في معظم الأحيان نجد الله
يتصرف في العالم بطريقة تثبت مشاهداتي عن العالم وكذلك ما يقوله
الله في الجزء التعليمي والوعظي من الكتاب المقدس .

وهذا المنظار ذو العدستين (عدسة تمثل التعليم الوعظي والأخرى
تمثل عمل الله في التاريخ وفي الكون) ترى فيه توافق العدستين .
وهذا يتفق تماما مع قانون الايمان الوستمنستري . ان الله عندما يعلن
عن صفاته للانسان فان هذه الصفات تبقى ثابتة وصادقة وحقيقية لا
للانسان فقط بل لله نفسه . قاله لا يقص علينا مجرد قصة ، لكنه
يخبرنا بكل ما هو حقيقي عن نفسه . وما يخبرنا به ليس شاملا ، لأننا
محدودون ولا يمكننا أن نعرف شيئا بطريقة شاملة . بل اننا لا نستطيع
حتى التفاهم معا بطريقة شاملة لأننا محدودون . لكنه يخبرنا بكل صدق
حتى عن اعظم الحقائق عن نفسه . ان الله لا يخدعنا .

وعلى نفس هذا الأساس نجد ان العلم ليس لعبة . ان العلم يتغير
في ايامنا حتى انه يتحول الى لعبة . وكما ذكرت فانا لا اصدق ولو
للحظة ، ان العلم الذي تخلق عن الأساس الذي بنى عليه ثم فقد فلسفته
الوضعية يمكن أن يستمر بطريقة موضوعية حقيقية . فالعلم يتحول الى
لعبة بطريقتين : فبالنسبة الى عدد كبير من العلماء صار العلم مباراة
او لعبة فالعلماء يلعبون لعبة معقدة في حيز محدود حتى انهم لا يفكرون
في المشاكل الحقيقية أو المعنى .

وهناك علماء آخرون يعيشون في معاملهم وقد أغلقوا على انفسهم
بقراءن الأرقام ، ويقارنون العينات . وهذا نوع آخر من اللعب
البرجوازي لقضاء الوقت كما يفعل الأغنياء الذين يقضون الوقت في
التزحلق على الجليد . وقد يقضون في هذه الرياضة ثلاثين عاما
بأبصارهم معلقة بعقرب الدقائق لحساب السرعة .

أما بالنسبة للمسيحي ، فالعالم له معنى آخر انه حقيقة

موضوعية • والعلم ليس مجرد لعبة • أما الطريقة الأخرى الأكثر
خطورة في رأيي فهي الاندفاع نحو العلوم الاجتماعية★

فلأن الناس فقدوا الأساس الموضوعي للتأكد من معرفة ما يعملونه ،
فأنى أخشى أنهم سيجدون أنفسهم شيئاً فشيئاً يتلاعبون بالعلم حسب
حالتهم الاجتماعية أو رغباتهم السياسية بدلاً من الثبات على حقائق
موضوعية ثابتة . وانى أعتقد أننا سنكتشف شيئاً فشيئاً ما أسميه بالعلم
الاجتماعى ، حيث نجد الناس يتلاعبون بالحقائق العلمية • ان فقد
الثقة الموضوعية عند العالم لهو أمر لا يقل خطورة عن فقد الثقة عند
الهيبيز • ونحن نرى ذلك عند الهيبي الذى غالباً ما يفقد التمييز بين
الحقيقة والخيال • فقد انتهت الحقيقة الموضوعية بالنسبة له سواء
استخدم المخدرات أو لم يستخدمها • وكم نحس بالأسى لهؤلاء الناس
ويجب أن نبكى عليهم حزناً • لكن العالم كثيراً ما يوجد فى نفس الموقف
عندما يفقد الأساس للمعرفة ويصبح فى حالة خطرة • ماذا يعنى العلم
ان كنت تفقد الثقة الموضوعية أو الأساس المعرفى الذى يعطيك الثقة فى
العلاقة بين الذات والموضوع ؟

أما المسيحى فانه يتوقع أن يلمس ما هو حقيقى ليكتشف كل شيء
عنه ، ويميز بين الحقيقى والزائف كما كان يفعل العلماء القدامى •
وهذا هو موقفنا ، لماذا يتوصل المسيحى الى أن العالم الخارجى موجود
فعلاً دون شك فى مجال المعرفة ؟ لأن الله خلقه ليكون موجوداً وجعل
ارتباطاً بين الذات والشئ •

أما النتيجة الثانية للنظرة المسيحية للمعرفة فانها تختص
بالآخرين الذين ينظرون الى • من أنا ؟ وما هو عالمى الفكرى الداخلى
بالمقارنة بما يراه الناس من وجهة نظرهم ؟ وهذه مشكلة خطيرة بالنسبة
لعديد كبير من شباب اليوم • فهم يحاولون أن يتعرفوا على بعضهم لكنهم
لا يتعرفون الا على المظهر الخارجى الكاذب • كيف ندخل خلف هذا القناع ؟
كيف نصل الى الانسان الحقيقى الموجود خلفه ؟ ليس على المسيحى أن

★ أنظر كتاب « الكنيسة فى نهاية القرن العشرين » لنفس
المؤلف •

يختار بين المعرفة الخارجية للأشياء وعوالمها الداخلية وبين عدم معرفتها على الإطلاق فأنا لا أتوقع معرفة هذا الإنسان الآخر جيدا لأنى محدود . لكنى أتوقع أن ما أعرفه عنه من معلومات يكون متناسقا ومنسجما . لأن نفس الاله خلق كل شيء فيه . ان قوة الفكر المسيحى تكمن فى أن كل شيء يندرج تحت الاله الموجود ويتوافق مع الذات الالهية اللامحدودة . وهذا هو النظام الفكرى الوحيد فى العالم الذى يتصف بهذا ولا يوجد ناظم آخر يمكن أن يندرج تحته كل شيء . لهذا أنا مسيحى ولست ملحدا . فى كل النظم الأخرى نجد شيئا شاذا لا يمكن أن ينطبق . لذلك نضطر الى بتره أو اهماله . أما المسيحى فهو يرى كل شيء مناسبا وموافقا وفى محله الصحيح تحت الفكر المسيحى عن وجود الله الذات اللا محدود . دون أى تمزق فى شخصية المسيحى .

وهذا حقيقى عندما أنظر للخارج لأرى العالم كما أنه حقيقى أيضا عندما أنظر الى الداخل لأرى الناس الآخرين وهذا هو المجال الهام الذى يشغل فكر معظم الشباب ، كيف يعرفون الآخرين ؟ كيف يتغلغلون خلف المظهر الخشبي الخادع ؟ كيف يعرف الإنسان أنه يوجد شيء خلف هذا المظهر ؟ وماذا عن التناقض بين ما قد أكون عليه فى الداخل وما أظهر به فى الخارج ؟ كيف أعرف أى إنسان آخر ؟

ان الاعلان الكتابى (طبقا لتعاليم الله) يحكم الإنسان لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضا . ما هى آخر وصية فى العهد القديم؟ انها وصية موجهة للداخل . « لا تشته » هذه الوصية تختص بداخل الإنسان . ويدون ذلك تسقط باقى الوصايا فالوصايا العشر تحكم الإنسان أخلاقيا لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضا . والمعرفة التى يعطيها الله اذ تلمس العالم والتاريخ لا تحكم الإنسان من الخارج فقط بل من الداخل أيضا . فنحن نجد وحدة بين الاثنين .

ونحن نجد اذا أن الكتاب يقدم الاخبار والاعلانات الالهية الحقيقية بمقاييس تتعامل مع الإنسان خارجيا وداخليا . فداخل الإنسان

ليس مستقلاً بذاته كما أن خارجه ليس قائماً بذاته . وفى كل مرة يصير داخل الانسان أو خارجه قائماً بذاته فان هذا يعتبر ثورة . وكل مشاكل الانسان تنشأ من محاولة الانسان التفرد بذاته بعيداً عن الله . فاذا ما انفصل أى شئ وتفرد بذاته عن الله عندئذ تتغلب الطبيعة على النعمة . ولنا نفس الشئ فى مجال معرفة الآخرين . فلا يمكن أن ينفصل شئ عن الله . فالمجالات الداخلية للمعرفة كالمعنى والقيمة ، والمجالات الداخلية للأخلاق يحكمها الله كما يحكم العالم الخارجى . واذ ينمو المسيحى روحياً فيجب أن يضع عالمه الفكرى وعالمه الخارجى بطريقة واعية شيئاً فشيئاً أمام مقاييس الكتاب المقدس ولكن ماذا عن غير المسيحى ؟ ان المسيحى ان يتصل بغير المسيحى فانه يجد نقطة بداية وانطلاق لمعرفته بطريقة لا تتوفر لغير المسيحى ، لأنه يعرف من هو هذا الشخص . تقابلت مع شخص من أنكى الأشخاص الذين تقابلت معهم فى غرفتى فى سويسرا عندما جلس أمامى بيكى لأنه كان يعتنق المذهب الانسانى Humanist والوجودى . هجر هذا الانسان وطنه فى احدى ولايات أمريكا الجنوبية وسافر الى باريس مركز هذه الفلسفات . لكنه اكتشف أنها مدينة بشعة لأن أساتذته لم يهتموا به . كانت معاملتهم له غير انسانية مع أنهم يعتنقون الانسانية . وعندما حضر عنده كان قد أوشك على الانتحار . سألنى « كيف تحبوننى؟ ومن أين تبدأون معى؟ » قلت له « أنا أستطيع أن أبدأ ، لأنى أعرف من أنت . انك مخلوق على صورة الله » . وبدأنا حواراً من هذا المنطلق . ان المسيحى يستطيع أن يبدأ حواراً حتى مع غير المسيحى بادئاً بما هو خارجى حتى يصل الى الحقيقة الداخلية . وبغض النظر عما يقوله الانسان لكنه انسان كما هو على حقيقته . انه مخلوق على صورة الله . هذه هى حقيقته . ومهما كان مظهر هذا الانسان الخارجى جامداً أو ميتاً حتى ليبدو وكأنه آلة الا اننا نثق أن خلف هذا المظهر الجامد أو الميت انسان ناطق يحب ويريد أن يتمتع بمحبة الآخرين . ومهما قال عن نفسه انه انسان لا أخلاقى فهو فى حقيقته يتمتع بالعواطف الأخلاقية . ونحن نعلم ذلك لأنه مخلوق على صورة الله . لذلك يستطيع المسيحى أن يبدأ حواراً مع غير المسيحى ان يبدأ من الخارج متجهاً الى الداخل بطريقة لا تتوفر لغير المسيحى .

لكن يجب أن تكون هناك طريقة أعمق ليتعرف المسيحيون على

بعضهم • لنعترف اننا فى حاجة الى التفاهم • فقد سئمنا الآلية
الانسانية التى نجدها من حولنا • لقد سئمنا أن نكون مجرد بطاقات
للعقل الالكترونى • فالشابة المسيحية والشاب المسيحى اللذان يريدان
أن يتعارفا والزوج والزوجة اللذان يريدان أن يتألفا ، والراعى الذى
يريد أن ينفث على رعيته وينفتح شعبه عليه كيف يمكنهم الوصول الى
هذا من الخارج الى الداخل ؟ ان مشكلة التعرف على بعضنا البعض
تكمث فى التناقض بين مظهر الانسان الخارجى وحقيقته الداخلية •
وهذه هى المشكلة التى تصادفنا دائما عندما نريد أن ندخل الى أعماق
الآخرين للتعرف عليهم • اذا كيف نتصرف ؟

هل تعلم انه بقدر ما يتقبل الانسان التعليم الكتابى عن الانسان
الداخلى والخارجى يتزايد التكامل بين الداخل والخارج فنراهما فى
وحدة واحدة تحت نفس مقاييس المعرفة والأخلاق ؟ •

من الحكمة التحرك من الانسان الخارجى الى الداخلى لوجود
وحدة متزايدة إذ أن الاثنين مرتبطان بنفس الوحدة الكلية الشاملة •
ويجب أن نسمح لمقاييس الله فى المعرفة والقيم أن تحكم الانسان الداخلى
والخارجى حتى يقل التناقض بينهما •

ولكن للأسف ، فاننا لا نطبق المعيار الالهى بدقة على عالم الفكر
الداخلى أكثر من الخارج بل لا نطبقه حتى على نفس المستوى • لكننا
استنادا على معايير الله فى الحق والأخلاق والقيم والمعرفة نجد سبيلا
بل نجما هاديا يوجد بين العالم الخارجى والداخلى • وهذا ينطبق علينا
كما ينطبق على محاولة الوصول الى أعماق الآخرين • وعندما ننقل
من عالم الفكر الخارجى الى الداخلى فاننا لا نسير فى بحر لا شاطئ
له - سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للشخص الواقف أمامنا رجلا كان
أو امرأة •

والى أولئك الذين يسرون فى مستنقعات الجيل الحاضر نقول
لهم هذا هو الجمال • فعندما نفهم هذه الحقيقة نجد فجأة أن الانسان
الداخلى ليس مستقلا بذاته • وعندئذ تتوحد الجزئيات الداخلية

للإنسان مع الخارجية تحت سيطرة نفس الكلى • وبهذه الوحدة نشكك
الله أننا نستطيع أن ندخل الى أعماق بعضنا البعض •

وهذه الوحدة ، يجب أن تكون جزءا من الخلاص ومن عمل
المسيح المستمر في الحياة المسيحية • فإن فقدان هذه الوحدة هو الذي
حرم هذا الجيل اليأس من أى تفاهم حقيقى •

فالأزواج والزوجات الذين ينامون على سرير واحد لعدة سنين
يحسنون بأنهم منغلَقون بالنسبة لبعضهم لعدم وجود الكلى الذى يربط
الجزئيات الداخلية والخارجية معا • أما بالنسبة للمسيحي ، فهذا
الارتباط موجود • واذ ننمو روحيا نأتى بالجزئيات الداخلية الموجودة
فى عالم الفكر - مثل المعانى والقيم والمعرفة والأخلاق - الى معايير
الله • ونتغير تدريجيا من الداخل فينعكس على التغيير على الخارج
أيضا حتى أننا نعرف بعضنا فعلا •

لقد تحدثت عن نفسى وأنا أنظر للخارج ثم وأنا أنظر للآخرين وهم
ينظرون الى • أما النتيجة الثالثة لنظرة المسيحي الى موضوع المعرفة
فهو الحقيقة والتصور • ويعتبر هذا الموضوع الى حد ما أهم المواضيع
الثلاثة • لقد ناقشنا فى فصل سابق النظرة المعاصرة للمعرفة حيث
وجدنا أن الإنسان لا يفرق بين الحقيقة والخيال وأنا أنظر الآن للصورة
العكسية أى نظرة المسيحي • فأنا أعيش فى عالم فكرى مليء بالأفكار
الخالقة وفى رأسى تصورات خالقة لماذا ؟

لأن الله الخالق خلقنى على صورته • قد أصل فى تصوراتى وخيالاتى
الى ما فوق النجوم • وهذه حقيقة لا فى حياة المسيحي فقط بل فى حياة
كل الناس • فكل إنسان مخلوق على صورة الله ، لذلك فلا يوجد إنسان
محدود فى تصوراتهِ وخيالاتهِ حتى أنها لا تتعدى جسده • وإذا سرحنا
بتصوراتنا فقد نغير شيئا من هيئة هذا الكون فى أفكارنا أو فى رسومنا
أو أشعارنا أو كمهندسين أو حتى عمال فى الحدائق • اليس هذا عجيبا ؟
أن تصوراتنا ليست مجرد صور فوتوغرافية كما قدمها لنا أنطونيونى فى
روايته Blow up بل أنا هناك وأنا قادر على فرض نتائج تصوراتى
على العالم الخارجى •

لكن لاحظ انى كمسيحي اثق ان الله صنع العالم الخارجى فلا
أختلاط فى نظرى بين الحقيقة والخيال • ان المسيحي حر طليق • انه
حر ان يطير لأنه لا يخلط بين الخيال والحقيقة التى صنعها الله •
لذلك فهو لا يعانى من اضطراب داخلى • ونحن أحرار أن نقرر « هذا
خيال » • اليس عظيما أن تكون رساما ، وترسم أشياء مختلفة قليلا عن
الطبيعة ؟ فأنت لا تصور الطبيعة صورة فوتوغرافية لكنك ترسمها
مختلفة قليلا • اليس رائعا أن تكون مخلوقين على صورة الله ونكون
قادرين على استخدام أفكارنا الخلاقة بهذه الطريقة ؟ ومع اعترافى بأن
هذا صحيح ، لكنى كمسيحي أتمتع بقدرة معرفية تمكننى من عدم
الخلط بين ما أفكر فيه وبين ما هو حقيقى موضوعى • ان جيلنا المعاصر
لا يتمتع بهذه القدرة ، لذلك فإن بعض الشباب يعانون من التمزق فى
هذه المجالات • أما المسيحيون فلا يجب أن يعانون من هذا التمزق •
لذلك فقد يتمتع المسيحي بالخيال والتصور دون أن يهدد ذلك حياته فى
حين أن الانسان المعاصر لا يمكن أن يرى أحلام اليقظة أو الأفكار
الخيالية دون أن تهدد حياته • ان المسيحي هو الشخص الحى الذى
تتحرك خيالاته وتتغير وتنتج شيئا مختلفا قليلا عن عالم الله لأن الله
خلقنا لنكون خلاقين •

والنتيجة النهائية اننا نرى ثلاث نتائج مترابطة للنظرة المسيحية
للمعرفة :

أولا : عندما أنظر للعالم الخارجى عالم العلاقات أرى العلاقة بين
الذات والموضوع •

ثانيا : عندما ينظر الناس الى وعندما أنظر للآخرين لكى أعرفهم
وأفهم شخصا آخر •

ثالثا : عالم الفكر الداخلى - عالم الخيال والتصور •

واتا اذ أنظر الى العالم الخارجى أفهم سبب العلاقة بين الذات
والموضوع واذ أنظر الى انسان غير مسيحي أرى فيه الانسان المخلوق
على صورة الله • أما عن علاقتنا كمسيحيين فاننا عندما ندع المعايير

الكتابية توحد الخارج والداخل شيئا فشيئا فاننا نعرف بعضنا بطريقة
افضل واجمل واعمق .

ولأن المسيحى غير مهده بالخلط بين الحقيقة والخيال فهو يتمتع
بخيال واسع يحلق فى آفاق كبيرة كما يتمتع بجمال الفكر الخلاق .

كل هذه الأشياء مذكورة لنا . لكن الاغتراب الحالى فى مجال
المعرفة يمكن أن يحيل أى مجال من هذه المجالات الثلاث الى جحيم
حرفى . فانهدام الصلة بين الذات والموضوع ، وعدم امكان تعرف
الناس على بعضهم والكابوس المريع الذى يتمثل فى الخلط بين الحقيقة
والخيال كل هذه الأشياء أو أى واحدة منها يمكن أن تصبح مصدر
رعب . لكن فى ظل الوحدة التى أوجدتها الله الذات اللا محدود نجد لكل
من هذه المجالات معنى : نجد الحقيقة والجمال فهى الحقيقة وهى أيضا
الجمال .

لكن الانسان ثار على الله ونحاول أن يستقل بذاته لذلك فان
الاغتراب الأعظم هو الانفصال بين الانسان والله . وعندما حدث هذا
ضاع كل شيء . هذا الاستقلال الذاتى انتقل الى المجال الأساسى للمعرفة
حتى صار الانسان منقسما على أخيه الانسان وعلى نفسه أيضا . فإذا
لم توجد مقالات مشتركة بين الخيال الداخلى والعالم الخارجى فان
الانسان يحيا منقسما ويحس بأنه مغترب عن نفسه ، ليس له كليات تلم
شمل الجزئيات فى حياته الخاصة . وتصبح هذه الجزئيات ولها حال
فى الداخل يختلف عن حالها الخارجى فيصرخ الانسان « من أنا ؟ »

ثرى هل أحس أى واحد منكم - يا من تقومون بالخدمة المسيحية
هذه الأيام - بهذا الاحساس ؟ اننا نقابل فى بيتنا فى لا برى بشويسرا
شباب قادم من اقاصى الأرض ليقول لنا « لقد أتيت لأحاول أن أجسد
نفسى من أنا ؟ » انه ليس مجرد شعور نفسى كما قد نفسره فى ضوء
علم النفس . لكنها مشكلة معرفية . فان محاولة الانسان للاستقلال
بذاته سلبته الوصول الى أى حقيقة محددة . فلا يوجد شيء يثق فيه
عندما يحلق خياله فوق النجوم ان كان لا يوجد فرق بين الحقيقة

والخيال • لكن على أساس فلسفة المعرفة المسيحية تنتهي مشكلة الخلط
هذه ويشفى الانسان من اغترابه •

وهذا هو لب مشكلة المعرفة • ولن تحل المشكلة ما لم نضحي
معرفة تحت سيطرة الاله الشخصى اللامحدود ، الاله المثلث الالقائيم ،
الاله الموجود هناك ، الاله غير الصامت • عندئذ ، وعندئذ فقط لا توجد
مشكلة •

ملحق

(١)

هل الاعلان الالهى غير صحيح ؟

توجد طريقتان لدراسة هذا السؤال عن الاعلان الالهى الخبرى
«وعصمته : الأولى بدراسة الفروض ★ السابقة المتضمنة • والثانية
بدراسة المشاكل والاعتراضات بالتفصيل وفى هذا الملحق سندرس
الطريقة الأولى • وما لم نفهم الطريقة الأولى فلن نفهم الطريقة الثانية •

يعتبر الانسان المعاصر ، واللاهوت الحديث ، مفهوم الاعلان
الالهى والفكرة المسيحية التاريخية عن عصمة الكتاب ليس خطأ فحسب
. بل كلام فارغ لا معنى له • وبنفس الطريقة ولنفس الأسباب نجد أن
هذه نظرتهم أيضا لمفهوم الخطية والاثم • فهم يرون أن هذا المفهوم إذا
قيس بأى مقياس أخلاقى لا يخرج عن كونه كلاما فارغا لكن لنسأل
«أنفسنا هل هذا الفرض - أو هذه الاجابة - هو الفرض المناسب والأمثل

ان المسيحية تبدأ بفرض أن كل الأشياء بدأت بداية شخصية • أى
أن هناك شخص ما هو الذى صنع كل الأشياء الأخرى • وهذا الشخص
يجب أن يكون كبيرا كبيرا كافيا أى أنه غير محدود • ولا شك أن كل
انسان يتساءل دائما عن هذا الشخص اللا محدود الذى كان هناك •
«فان كان هذا الفرض صحيحا فان كل المشاكل يمكن حلها بعد ذلك •

وأى شخص - بل كل شخص - يجب أن يجد تفسيرا لهـسفه
«الحقيقة : « ان الكون موجود • وأنه هو شخصيا موجود أيضا • اذا لا بد
أن شخصا كان هناك موجود » •

فان كان هذا الشخص اللا محدود موجودا ففى هذه الحالة يكون

★ المقصود بالفرض هنا المعطيات الاساسية للتفكير • ونحن
نتخبر صحة الفرض أو عدم صحته

(العرب)

كل شيء آخر محدودا بالمقارنة بكماله ولا محدوديته • لكن افترض أنه صنع شيئا محدودا لكن بنفس طول موجته - أو بلغة أخرى لنقل على صورته - اذا يكون عندنا شخصية لا محدودة غير مخلوقة وشخصية محدودة مخلوقة • وبناء على هذا الفرض فان شخصية الفرد المحدود المخلوق يمكن تفسيرها وعلى أساس نفس هذا الفرض ، لماذا لا يستطيع الذات اللا محدود ، الغير مخلوق ، أن يتصل بالمخلوق متى ما أراد ؟ وطبعي ان الذات اللا محدود غير المخلوق اذا اتصل بالمخلوق المحدود فإنه لا يستغرق نفسه في هذا الاتصال •

وهنا يبدو لنا شيان :

١ - حتى وان كان الاتصال - بين شخصين مخلوقين على نفس المستوى - غير شامل ، لكن هذا لا يعنى أن هذا الاتصال غير صحيح •

وعلى هذا فان اتصال غير المخلوق بالشخص المخلوق لن يختلف من حيث النوع عن اتصال شخصين مخلوقين ببعضهما • نعم قد يكون الاتصال غير شامل ، لكنه لا يعنى أنه غير صحيح ، تماما كالاتصال بين شخصين مخلوقين • الا اذا كان هذا الشخص غير المخلوق كاذبا أو متقلب الرأي •

٢ - اذا كان الشخص غير المخلوق يهتم حقا بالشخصيات التى خلقها ، فأننا لا نستغرب - أو نعتبره أمرا غير متوقع - اذا اتصل بالمخلوقات ليخبرها بأشياء عن طبيعته • والا فان المخلوقات ستصبح غير قادرة على معرفة أشياء كثيرة اذا بدأت بنفسها فقط كنقطة مرجعية محدودة •

وفى هذه الحالة لا نجد سببا جوهريا يفسر لنا امكان الخالق توصيل بعض الحقائق الغامضة لكنه لا يستطيع توصيل بعض الأخبار والأفكار بخصوص العالم المحيط بالمخلوق • دعونا نسمى هذا من قبيل المرح بالعلم • ولماذا لا يستطيع الخالق أن يوصل بعض الحقائق الخبرية الى المخلوق عن النتائج التى حدثت بعد أن خلق مخلوقاته ؟ ولنسم هذا تاريخا •

لا يوجد سبب - نفكر فيه - يمنع هذا الشخص غير المخلوق من الاتصال بمخلوقاته لتوضيل هاتين الحقيقتين • قد يكون هذا الاتصال غير شامل لكن لماذا نظن انه غير حقيقي ؟ •

هذه المناقشة عن الاعلان الالهى الخبرى هى الموضوع الذى ينادى به كتابنا المقدس • فان رغب الخالق ان يتصل بمخلوقاته بطريقة يمكن كتابتها بأسلوبهم الخاص وأن يعطيهم التفاصيل الدقيقة التى يريدون أن يكتبوها فى مجال الحقائق الدينية والكونية والتاريخية فلن نستطيع أن نقول - قولا مطلقا - انه لا يقدر أو أنه لن يفعل ذلك • وهذه ما ينادى به الكتاب فى موضوع الوحي •

وفى هذا الاطار لماذا نعتقد انه أمر لا يمكن أن نعقله أن يتصل الخالق بالمخلوق عن طريق اللغة ، ما دام هذا الخالق قد صنع المخلوق قادرنا على التفاهم باللغة ؟ ونحن كائنات ناطقة متحدثة بلغة حتى ولو لم نعرف السبب •

وما لم نؤمن بالفروض الأخرى الطبيعية فلا يوجد سبب يجعل حديث المسيح مع شاوول باللغة العبرية مستخدما التعبيرات والكلمات العادية ، (٢٦ : ١٤) أو حديث الله الى شعبه فى سيناء ، أمرا غير معقول •

وقد يحاول انسان أن يخفى ايمانه بالفروض الطبيعية فيناقش الموضوع مستخدما تعبيرات دينية فيقول مثلا « أن يسوع أعطى لشاوول اختبارا بدائيا بدون مضمون حتى ان الكلمات الواردة فى النص الكتابى للتعبير عن هذا هى مجرد كلمات تعكس نظرات للحياة والتاريخ والنظرة السائدة فى ذلك الوقت » وعندما يقول شخص مثل هذا الكلام فانه يتركنا بايمان مساو لقولنا « أنا أو من ٠٠٠٠ » دون اكمال الجملة أو دون قدرة على اكمالها •

بل - أكثر من ذلك - ان كان الخالق قد أعطى الانسان المعلومات التى يريدونها فى كتاب تاريخ فلماذا يعتبر شيء بعيد الاحتمال ان يوصل الله حقائق التاريخ الزمانى والمكانى بصدق فى هذا الكتاب ؟

ليس غريباً أن نظن أن هذا الشخص الخالق - رغم أنه غير كاذب
أن مخادع - يعطى الإنسان الحقائق الدينية في كتاب ظاهره وباطنه
التاريخ ومع هذا يكون هذا التاريخ ملففاً مشوشاً .

لا شك أن هذه الأفكار تبدو غريبة أشد الغرابة ما لم نعتقد في
الفرض القائل بأن هذا الكتاب ما هو إلا تأملات الإنسان عندما ينظر إلى
حقائق . وهذا الفرض يدخل في إطار نظرية وحدة العلة الطبيعية .

والكتاب المقدس لا يقدم لنا مستويين مختلفين . فهو لا يقدم
الحقائق الدينية منفصلة عن التاريخ ، لكنه يلجأ للتاريخ - القابل
للاستحسان والتحقيق - كطريق لإثبات الحقائق المعطاة . لكن الكتاب
لا يشير إلى أن التاريخ الزماني والمكاني - الذي يغلف الحقائق - هو
بوحده الغير معرض للخطأ .

لماذا لم يعلم الخالق الشخص المخلوق - بكل صدق - معلومات
على المستوى الذي نستخدمه ونعرفه نحن المخلوقين . ولو كان تعليمنا
غير شامل لكنه حقيقي ؟ فهذا هو الأسلوب الذي نحصل به على
المعرفة من نظرائنا المخلوقين . بل لماذا لا يستطيع هذا الخالق أن
يعرفنا عن نفسه بصدق - ولو بطريقة غير شاملة - ما لم نتقبل الفرض
أن هذا الخالق ليس إلا فكرة فلسفية . فإذا بدأنا بالخالق الذي خلق
الإنسان على صورته فما الذي يستبعد التعبير الذي ورد في قانون
الآيمان المطول الذي نطلق عليه قانون وستمنستر المطول ، أن الله أعلن
لنا عن ذاته في كتابه المقدس ؟ هل يوجد سبب يدعو هذا الخالق ألا
يعرفنا بكل صدق عن ذاته ولو معرفة غير شاملة ؟

فإذا وصلنا إلى هذه المرحلة فإننا نجد شيئين واضحين :

أولاً : أننا إذا بدأنا بالفرض بأن كل الأشياء بدأت بالكتلة أو
الطاقة فإن الإعلان الإلهي أو عصمة الكتاب تصبح غير ذات موضوع .

ثانياً : إذا بدأنا بالفرض بأن الذي بدأ العالم شخص أو ذات ،
هذان هذه الأفكار تصبح معقولة . ومدى معقولية الموضوع تتوقف على

١٠ أى الاتجاهين نتخذه كبداية أو بأى الفرضين نبدأ بحثنا • فإذا بدأنا بالبداية الشخصية فإن المسألة تتحول عن مجرد التفكير فى إمكان اتصال الشخص غير المخلوق بالشخص المخلوق ويصبح هذا الفرض غير ذات موضوع من أساسه •

١١ أما لذا بدأنا بالبداية الشخصية فإن سؤالاً هاماً يلح علينا : ألا يعتبر اتصال شخص بآخر على نفس المستوى غير معقول أيضاً ؟

فإذا بدأنا بهذا الفرض فلن نجد أى معنى لحديث شخصين معاً •
١٢ ولاتصات شخص لآخر إلا إذا كان لنا إيمان ضد كل الافتراضات الأساسية •

بل الأسوأ من ذلك ، أن من يفترض هذا الفرض لا يستطيع اقناع الناس العاديين (مثلى أنا والآخرين) بفكرة أنهم يتحدثون بلا معنى •
فكل خبراتنا تقنعنا أن الآخرين يسمعوننا بصدق ولو بغير شمول •

١٣ لا يشبه ذلك الصورة التى صورها فرنسيس بيكون Francis Bacon

على الانسان أن يصرخ ؟ لكن الأمر كله ضياع ولعنة ، بما فى ذلك الصرخة نفسها •

والآن فى ضوء هذا التشويش الكامل الذى يقودنا اليه الفرض الآخر (اللا شخصى + الزمن + الاحتمالات) فإن الفرض الأول الذى يفترض البداية الشخصية يستحق منا نظرة اعتبار خاصة •

فإن كان أصل الوجود شخصى فإن فكرة اتصال مخلوق بمخلوق آخر أو اتصال الخالق بالمخلوق لا تصير غير معقولة أو غير محتملة •

ولعل أهمية كل هذا البحث ترجع الى أن عدداً كبيراً من الناس ، (بما فيهم أولئك الذين يدعون أنهم مبشرون) - ممن تركوا المفهوم التاريخى والكتابى عن الاعلان الالهى وعصمة الكتاب - قد فعلوا ذلك لا عن اقتناع وبعد دراسة تفاصيل المشكلة بطريقة موضوعية بل لأنهم

تقبلوا الفرض الآخر اما بالطريقة التحليلية باعتبارها (مودة) هذا العصر أو بطريقة عمياء • وغالبا ما يفعلون ذلك وكأنهم طعموا بهذه الأفكار دون أن يتبينوا ما حدث لهم •

ان من يتقبل الفرض الآخر ، مخالفا البرهان الواضح لاتصال إنسان بأخر بطريقة حقيقية – ولو أنها غير شاملة – كيف يستطيع أن يسمع ؟ غريب حقا ان نستطيع توصيل مفهوم رفض انسان لفكرة وجود الذات الغير مخلوق ان لم يكن هناك أى طريقة لاثبات كيف ، ولماذا ، وماهية ، الاتصال بين الانسان وبنى جنسه • ويزيد العجب ان رفضنا أن نتفهم حقيقة الذات غير المخلوق مع أنه يفسر لنا كيف ، ولماذا ، وماهية ، الاتصال بينى وبين بنى جنسى •

واذا وصلنا الى هذه النقطة فاننا نستطيع تفهم تفاصيل المشاكل • فالنظرة التاريخية للكتاب والكنيسة والاعلان الالهى والعصمة لم تعد خرافة كما يدعون • وحتى معظم المشاكل التفصيلية نراها مختلفة تماما متى استبعدنا فكرة انها خرافة وعالجناها على هذا الأساس •

الايمن مقابل الايمان

يجب أن يحلل الانسان كلمة ايمان ليرى أنها قد تعنى شيئين متناقضين تماما .

لنفرض أننا نتسلق جبال الالب . وعندما نصل الى صخرة كبيرة عالية جدا ، يغمرنا الضباب فجأة . ويستدير القائد ليقول لنا « ان الجليد سيتكون وانه لا أمل لنا فى الحياة » . وقبل أن يصبح الصباح سنكون قد تجمدنا كلنا ومتنا على قمة هذا الجبل ، ولكى يساعدنا القائد على الاحساس بالدفع فانه يجعلنا نسير رغم كثافة الضباب حتى ان كل واحد منا لا يعرف مكانه وأين هو . وبعد أن نسير على هذا الحال ساعة ، يسأل أحدنا القائد قائلاً : « افترض أنى سقطت على صخرة تبعد عشرة أقدام الى أسفل ، ماذا يحدث لى ؟ ويرد القائد قائلاً « ان بقيت للصباح فانك تحيا » عندئذ يقوم أحد أفراد المجموعة - رغم الضباب - بالتدلى بالحبل دون أى معلومات يستند اليها .

هذا نوع من الايمان نسميه قفزة الايمان . لكن افترض اننا بعد فترة من بقائنا على هذه الصخرة ، وفى وسط هذا الضباب ، والجليد يتساقط ، توقفنا لنسمع صوتا يقول « انكم لا تروننى ، لكنى أعرف مكانكم تماما من أصواتكم » وأنا واقف على قمة صخرة أخرى . لقد عشت على هذه الصخرة أنا وأسرتى مدة ستين عاما . وأعرف كل شبر فيها . وأؤكد لكم أنه على بعد عشرة أقدام أسفل الصخرة التى أنتم واقفون عليها نتوء ، فإذا تدليتم ونزلتم عليها اثناء الليل فسأجدكم فى الصباح » .

وإذا لن اتدلى فورا لأنزل ، بل لا بد أن أسأل بضعة أسئلة لأحاول التأكد من أن هذا الرجل يعرف ما يقول ، ولأتأكد من أنه ليس عدوا لى فقد أسأله عن اسمه لأتأكد أنه من سكان الجبال فعلاً * . فهذا سيكون

* فى جبال الالب فى سويسرا يتسمى سكان الجبال بأسماء معينة تدل على أن أصحابها من سكان الجبال .

له تأثيره الكبير على طبعنا • ورغم انى أشعر باليأس ، وبقيمة الوقت.
الذى يمر لكن لا بد أن أسأله أسئلة كافية من وجهة نظرى • فإذا اقتنعت.
تماما عندئذ أمسك بالحبل واتدلى •

هذا ايمان لكنه لا يمت بصلة الى ايمان الشخص الأول • وفى
الحقيقة ان اطلقنا على تصرف احدهما ايمانا فيجب أن نطلق على
تصرف الشخص الآخر لفظا آخر يميزه

ان الايمان المسيحي التاريخى ليس قفزة ايمان بمفهوم كيركجارد.
لأن الهنا « غير صامت » وهو يدعونى أن أسأله كل الأسئلة الكافية عن
كل التفاصيل ، وعن وجود الكون المعقد ، وعن وجود الانسان • أنه
يدعونى أن أسأل ما يكفينى من الأسئلة • عندئذ أؤمن به وأسجد أمامه.
فى مجال ما وراء الطبيعة لأنى أعرف انى موجود لأنه خلقنى • وأسجد.
له فى مجال الأخلاق لأنى محتاج الى ما يقدمه لى المسيح المصلوب الذى
مات نيابة عنى وقام ليشفع فى •

